علي فهمي خشيم

النزعة العقلية في تفكير المعتزلة

الطبعة الثانية

الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان

النزعة العقلية في تفكير المعتزلة

النزعة العقلية

في

تفكير المعتزلة

تأليف

الدكتور علي فهمي خشيم

الطبعة الثانية

الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان

الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م
الطبعة الثانيـة ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م

بسم اللہ الرحمن الرحیم

مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين، وبعد:

فإن الناظر في تاريخ الفكر الإسلامي ليرى خضماً متلاطم الامواج متباين التيارات وليجد امامه ضروباً متنوعة من النشاط الذي تختلف بواعثه وآثاره. وهو لا ريب واجد في الفرق الاسلامية العديدة بالذات امثلة كثيرة تظهر ما يتمتع به هذا الفكر من خصوبة وتنوع يسرهما له مافي الإسلام نفسه من ثورة على مظاهر الجمود العقلي ودعوة حارة إلى البحث والتمحيص وإعمال الفكر إلى ابعد مداه.

وقد كان المعتزلة إحدى اشهر الفرق التي لعبت دوراً بارزاً في توجيه دفة الفكر الإسلامي، وقدمت نموذجاً رائعاً لما ينبغي ان يكون عليه المفكر من إقدام على المسائل الخطيرة وجرأة في البحث والرأي والنقد واستخلاص النتائج القائمة على مقدمات عقلية واضحة. هذا إلى جانب تأثيرهم السياسي والاجتماعي والادبي، سواء عندما كانوا مقربين من اولي الامر أم بعد النكسة التي أصابتهم بعدئذ.

وإذا قلنا: المعتزلة، فان أول ما يتبادر إلى ذهن السامع هم أولئك المفكرون الأفذاذ الذين تحرروا من أسار التقليد وانطلقوا خلف شعلة العقل المتوهجة في بحثهم عن الحق أين كان، وهم أولئك الرجال العظماء الذين لولا

ما حاق بهم من مصير مؤسف دفعت بهم إليه الأيدي الرعناء لكان للمسلمين شأن غير هذا الشأن ولكان للفكر الإسلامي واقع غير هذا الذي نراه اليوم .

لقد اشتهر أهل الاعتزال – قبل كل شيء – باحتضانهم للعقل واحتفائهم به . فكان لزاماً إذن أن يبرز هذا الجانب الرئيسي في تفكيرهم ، وكان ضرورياً أن نسلط عليه الأضواء ويجلى للناس بقدر الإمكان . ولذا كان هذا البحث محاولة متواضعة لإظهار ما في تفكير المعتزلة من نزعة عقلية وميل واضح إلى استعمال هذا السراج الإلهي الذي منحه الله للإنسان في موضعه الصحيح .

وبقدر ما في هذا الأمر من أهمية بقدر ما فيه من عسر وصعوبة ؛ ذلك لأن هذه النزعة العقلية ليست مذهباً محدداً مشروحاً في كتب أو أبواب وفصول ، وإنما هي روح تسري خلال آثار المعتزلة على العموم. ومما زاد في هذه الصعوبة أن المعتزلة لم يخلفوا لنا سوى كتب معدودة لا تكفي للبحث والتقصي، بسبب ما لقيته مؤلفاتهم الكثيرة من احراق وإبادة نتيجة لموجة العداء الشديد لهم التي أعقبت انهيارهم . فكنت مضطراً إلى تلمس بغيتي في ما كتب خصوم المعتزلة للرد عليهم ، وخاصة الأشاعرة .

أما من حيث اتساع الموضوع وتشعبه – بل وتشتته أحياناً – فقد كاد أن يفلت مني جوانبه ، مما دفعني إلى محاولة التضييق والتحديد ، وهذا ما قد يلمس القارىء اثره في بعض الأحيان ، وإلى الاختصار في بعض الجوانب الأخرى كنت أود لو توسعت فيها وتوقفت عندها مدة أطول .

ولعل هذا ناتج عن ارتباط التفكير المعتزلي الديني والفلسفي بتيارات الحياة السياسية والاجتماعية مما يزيد في دائرة البحث والتنقيب وقراءة جوانب عديدة متشابكة لاستنتاج هذه النزعة من خلال تيار الفكر المعتزلي بوجه عام.

ولما كانت النزعة العقلية – كما قلت – روحاً سارية في تفكير المعتزلة ، فقد توجب عليّ متابعة تطورهم التاريخي منذ نشأتهم حتى نهايتهم ، مع التعرض

لعلاقاتهم بغيرهم من ذوي الفكر في الإسلام وسواه ، ومحاولة تلمس التأثر والتأثير في مختلف مراحل هذا التطور . كذلك يلحظ القارىء أنني حرصت على تقصّي مقدمات نشأة التفكير العقلي في الإسلام بصفة عامة ، ثم الفرق ، ثم المعتزلة بصفة خاصة – بشيء من الاسهاب – لأنني أرى أن هذا التفكير العقلي لم يبرز فجأة ، وإنما قام بناؤه حجرا فوق حجر ، وتشكل طوراً بعد طور .

كما وجدت نفسي ملزماً – في بعض الأحيان – بعقد مقارنات ، وإن كانت عابرة، بين المعتزلة وسواهم من المدارس الفكرية بغية الوصول إلى توضيح موقف المعتزلة ببيان مواقف غيرهم منهم في عديد المشكلات الفلسفية والدينية والسياسية وغيرها .

لقد كانت هذه الدراسة في أساسها بحثاً تمهيدياً لأطروحة ماجستير في الفلسفة الاسلامية ، ولم يكن معداً للنشر في الأصل،لكن ابت « دار الفكر » إلا أن تنشره على علاته وهناته ، وهي كثيرة لا تعد ، وعذري فيها أنها خطوات البداية التي تدفع دائماً إلى العثار .

علي فهمي خشيم

مصراته في ٢٥ / ١١ / ١٩٦٦ م

تمهيد

جاء الاسلام الى أرض الجزيرة العربية ، فوجد شعباً غلبت عليه البداوة، ليس له في العلم والحضارة باع طويل . وكان أن لقي ارضاً صالحة للايمان بالغيب ، مهيأة لتقبل الرسالة ، مستعدة لقبول الدين الجديد .

وقد اتفق الباحثون على خلو شبه جزيرة العرب في تلك الفترة تقريباً، من معالم الثقافة والحضارة والعلم المبني على اسس ونظريات وتفكير عقلي بمعناه الخاص .

كذلك لم يكن لدى العرب فلسفة بالمعنى المتعارف عليه– وإن لم يعدموا نظريات ساذجة مبنية على التجارب الشخصية المحدودة ، في مسائل الفلك ، والعبادات الوثنية الساذجة . وكان أهم ما لديهم من معالم التطور والثقافة لغتهم وشعرهم ، فكان اهتمامهم منصباً على الفصاحة والبلاغة نثراً وشعراً . وكان الشعر سجل حياتهم وأخبارهم وحروبهم ، والعاكس لطبيعة مجتمعهم وتكوينه ومثله وقيمه . اما التفكير العقلي – كمنهج – فلم يكن واضحاً أو متداولاً بمعناه المفهوم .

لكن القرآن الكريم ما لبث أن نزل وفيه من الحث على النظر والدعوة إلى التفكر واعمال الذهن في ملكوت الله وآياته الشيء الكثير ، بغية الوصول إلى إقناع الناس بعبادة الإله الواحد الذي تدل على وجوده ووحدانيته مختلف الظواهر الطبيعية والنفسية .

وكانت الآيات من امثـــال : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون [1] »، «وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون [2] » ، « أفي الله شك فاطر السموات والأرض» [3]، « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » [4] ، ، مثل هذه الآيات وغيرها كثيرة وواضحة . لكن الغرض منها كان واضحـــاً هو الآخر ، إذ هو توجيه النظر نحو الخالق الواحد والإيمـان به وبرسوله ، عن طريق المعرفة بالعالم .

كما اننا لا يمكن أن نغفل ما في القرآن الكريم من قوة التحـدي للمعاندين والجاحدين ، وموقفه المستثير للخصوم كان بمثابة دافع لمراجعة الادلة والبراهين بالنسبة لأصحاب الديانات الأخرى ، كما هـــو حافز لمحاولة النظر واكتشاف مدى صحة الاعتقاد أو بطلانه من خلال تحليل براهين القرآن وحجج مخالفيه .

---

(١) سورة البقرة آية ١٦٤

(٢) الذاريات آية ٢٠ ، ٢١

(٣) ابراهيم آية ١٠

(٤) فصلت آية ٥٣

بدايات التفكير العقلى فى الإسلام

بدايات التفكير العقلى فى الإسلام

يعتمد الدين في أول نشأته على الإيمان القلبي العميق والتسليم بما جاء به دون مناقشة جزئيات الاحكام وتفاصيلها ، ولا يكون هناك غالباً مجال للنقد وإبداء الرأي وتحكيم العقل البشري – ممن يعتنقون الدين الجديد – خاصة في المسائل العقائدية الكبرى [1] .

لكن فورة الحماس الإيماني لا تلبث أن تهدأ ، وتبدأ من بعدها الاسئلة : كيف ، ولماذا ، ومتى ، وماذا ؟ .. ومن هنا تتشعب الطرق وتختلف السبل ، وتظهر الفرق الدينية المتباينة ، بل المتضاربة في كثير من الأحيان .

وكما يرى الدكتور ابو ريدة من أن ما لاحظه بعض المستشرقين – مثل جولدزيهر وماينتز وغيرهما – في هذا الباب صحيح في الجملة . وهو أن البحث في ماهية الاحكام وفي اسرارها والاصول التي تقوم عليها لم يكن في العصر الأول [2] للإسلام الذي حدث له نفس ما حدث لغيره من الديانات .

فقد نشأت الخلافات بين المسلمين بمجرد موت النبي (ﷺ) . وأغلب مؤرخي الفرق الإسلامية يرجعون الاختلافات بينهم إلى مسائل محددة [3] تقريباً وإن اختلفوا في الالفاظ والنصوص اختلافاً يسيراً . إلا أن الشهرستاني

---

(١) أحمد امين ـ ضحى الاسلام ، جـ ٣ ص ٢ ، ٣ ط سابعة .

(٢) ابو ريدة ـ النظام : آراؤه الكلامية الفلسفية . ص ١٦٧

(٣) الملل والنحل من ص ١٧ – ص ٢٥ جـ ١

يرجع بدايات النظر العقلي - بمعنى استعمال الرأي الشخصي وإبدائه - إلى زمن النبي (ﷺ) وإبان حياته ، فيقول :

« اعتبر حديث ذي الخويصرة التميمي إذ قال : اعدل يا محمد فانك لم تعدل . حتى قال عليه السلام : إن لم أعدل فمن يعدل ؟ .. فعاود اللعين وقال : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ... قولاً بتحسين العقل وتقبيحه وحكماً بالهوى في مواجهة النص واستكباراً على الامر بقياس العقل .

واعتبر حال طائفة اخرى من المنافقين يوم أحد إذ قالوا: هل لنا من الأمر من شيء ؟ وقولهم : لو كان لنا من الأمر من شيء ما قتلنا هاهنا .

وقولهم : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ... تصريحاً بالقدر .

وقول طائفة من المشركين : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء .

وقول طائفة : أنطعم من لو شاء الله أطعمه .... تصريحاً بالجبر .

كما ان هناك الذين جادلوا في الله وصفاته وأفعاله (ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال) [1] .

فهذا ما كان في زمانه عليه السلام ، وهو على شوكته وقوته وصحة بدنه، والمنافقون يخادعون فيظهرون الإسلام ويبطنون الكفر [2] . »

ثم يضيف الشهرستاني الى ذلك الخلافات الواقعة في حال مرض النبي وبعد وفاته ويصفها بأنها خلافات (اجتهادية) .. منها :

أن رسول الله قال وهو مريض: إيتوني بورق وقرطاس أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعدي . فعارض عمر بن الخطاب متعللاً بمرض الرسول (ﷺ) .

---

(١) سورة الرعد آية : ١٣

(٢) يلاحظ ان مؤرخي العقائد المسلمين ينحون باللائمة دائماً على المنافقين واليهود ويرمونهم بأنهم سبب الخلاف ونشأة الفرق المتصارعة في الاسلام .

والخلاف في تسيير جيش أسامة ، وإنكار عمر لموت النبي ، والاختلاف في موضع دفنه ؛ مكة ام المدينة ام بيت المقدس ، وفي التوارث عنه ، وفي قتال مانعي الزكاة ، وفي نص ابي بكر على عمر في الخلافة ، واختلافات في الارث والدية وغيرهما . ثم شغلت المسلمين الفتوح ، واتفقوا في تولية عثمان لكنهم اختلفوا في تصرفاته، ثم كانت خلافات علي مع عائشة ومعاوية وحرب الجمل وصفين – وظهور (الخوارج) و(الغلاة) وفي مقدمتهم عبدالله بن سبأ – وكانت هذه – كما يقول – بداية الضلالة والبدعة .

ويتفق ابو الحسن الاشعري مع الشهرستاني – وان كان اقل تفصيلا – ويجعل اول خلاف بين المسلمين في مسألة (الامامة)[1] بينما يجعله الاسفراييني[2] في وفاة النبي (ص) ... ثم تعدد باقي الاختلافات .

يعلق ابو مظفر الاسفراييني بقوله :

« إن الخلاف لا يكون خطراً إلا اذا كان في اصول الدين [3] ، ولم يكن اختلاف بينهم في ذلك ، بل كان اختلاف من يختلف في فروع الدين ، مثل خلاف الفرائض فلم يقع خلاف يوجب التفسيق والتبرّي .... وظهر في أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية وكانوا يخوضون في القدر والاستطاعة ، كمعبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم . وكان ينكر عليهم من كان قد بقي من الصحابة كعبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وعبدالله ابن ابي اوفى وجابر وأنس وأبي هريرة وعقبة بن عامر الجهني وأقرانهم » [4] .

اما عبد القاهر البغدادي فيقول :

---

(١) مقالات الاسلاميين . ص ٢٩ - ٦٤

(٢) التبصير في الدين . ص ٢٥ - ٢٩

(٣) فليلاحظ القارىء تشابك الخلافات الدينية بالخلافات السياسية فيما سبق .

(٤) التبصير . ص ٢٩ .

« كان المسلمون عند وفاة رسول الله (ﷺ) على منهاج واحد في اصول الدين وفروعه ، غير من اظهر وفاقاً وأضمر نفاقاً » .

وبعد أن يعدد الخلافات التي ذكرناها يقول: « ثم حدث في زمن المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية في القدر والاستطاعة من معبد الجهني وغيلان الدمشقي والجعد بن درهم . وتبرأ منهم المتأخرون من الصحابة كعبدالله بن عمر وجابر بن عبدالله وأبي هريرة وابن عباس وأنس بن مالك ... إلخ » [1] .

فها نحن ندرك مما تقدم أن هناك (اختلافات) ،حصلت في زمن النبي وبعده بقليل في عديد المسائل الدينية والسياسية ، ولا يمكن بحال أن يكون هناك خلاف الا" اذا كانت (وجهات نظر) متعارضة قد ظهرت ، معبرة عن رأي اصحابها الخاص وموضحة لمواقفهم من المشكلات المعاصرة لهم . وهي وجهات نظر بسيطة لم تبلغ مبلغ التعقيد بعد . كما لاحظنا بدايات لآراء تمس العقيدة والاصول الدينية مثل القول بالقدر في أيام أواخر الصحابة الذين اتخذوا موقف المعارضة لمثل هذا الاتجاه — حسب قول المؤرخين من أهل السنة والأشاعرة .

القرآن الكريم كمصدر للتفكير العقلي في الاسلام :

بقدر ما كان القرآن كتاب عقائد وعبادات ، فهو كتاب فيه من الدعوة الى النظر العقلي الشيء الكثير .

إذ لم يكن القرآن كتاب مواعظ اخلاقية فقط أو تاريخاً أنزل كعبرة عن قرون ماضية ، وإنما هو كتاب ميتافيزيقي وأخلاقي وعملي ، وضع الخطوط الرئيسية للوجود كله . فهو كتاب الكون منذ نشأته إلى فنائه [2] .

---

(١) الفرق بين الفرق ص ١٤ - ١٩

(٢) د . علي سامي النشار في (نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام) ج ١ ص ٢

ومن الخطأ البالغ انه يقال أن القرآن خلو من النظريات الكونية والفلسفية وانه لم يرتد آفاق الوجود لكي يحددها في صورة نهائية [1] .

فالقرآن الكريم إذن كان أحد المصادر الكبرى – إن لم يكن اكبرها – للنزعة العقلية ، بحثّه على تحكيم العقل ، وبالنظرة العقلية غير الاسطورية أو الخرافية التي جاء بها . بل وبتحديه القوي لحجج معارضيه ، ومطالبته إياهم بأن يأتوا ببرهانهم إن كانوا قادرين ، لدفع ما في القرآن من حجة بالغة ودليل قاطع . كذلك بلغته وطريقة خطابه أيضاً ، وبما فيه من آيات محكمة ومتشابهة كانت عاملا من عوامل الاختلاف في الرأي والتفسير والاجتهاد .

يقول د . محمد البهي: « إن لغة القرآن ولغة الحديث سبب ثان يضاف إلى الخلافات السياسية السابقة في إيجاد التحزب في الرأي والتفرق في فهم العقيدة [2] أما الآيات المتشابهة في القرآن فقد كانت اكبر عوامل الاختلاف والفرقة ، إذ جاءت آيات محكمات معبرة عن الحقائق المطلقة والكلية ، ومتشابهة عن النسبيات أو الظاهريات أو المجازيات (كتاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) [3] . وفي الثانية كان الاختلاف حتى سار كلٌ في طريق [4] .

الخلافات السياسية :

يرى الكثيرون – وهم على حق – أن ارتباط الدين بالسياسة كان أحد أسباب نشأة الفرق الاسلامية .

فالى جانب التيارات المتصارعة داخل الكيان العربي كانت هناك قوى

(١) د . علي سامي النشار في (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام) ج ١ ص ٢ .
(٢) الجانب الألهي من التفكير الاسلامي ص ٣٤
(٣) سورة : هود آية : ١
(٤) د . ابوريدة ومحاضراته في علم الكلام بآداب الجامعة الليبية للعام الجامعي ١٩٥٩ – ١٩٦٠ م .

خارجية – فارسية ويهودية ونصرانية – أثرت تأثيراً واضحاً في خلق مذاهب دينية – سياسية تسخرها لغايات بعيدة، بينما ظاهرها الدين والنظر والاجتهاد العقلي المحض .

وهذا مما يجعل مهمة الباحث في نشأة الفرق الإسلامية دقيقة ومعقدة إذا ما أراد تقصي عوامل هذه النشأة من زاويتها تلك ، وليس هذا موضعه .

البدايات الأولى للمعتزلة

البدايات الأولى للمعتزلة

النشأة و الاتصال

النشأة :

يحلو للكثيرين من مؤرخي الفلسفة الإسلامية أن يعودوا بنشأة المعتزلة إلى أيام الحسن البصري ، وبالتحديد إلى ظهور واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد .

لكن الحق أنه لا يمكن أن يكون الامر بهذه السهولة والبساطة، إذ ليس من المعقول أن يقوم مذهب متكامل بين ليلة وأخرى ، وأثناء جلسة واحدة، وإثر اختلاف بسيط في مسألة هي مثار جدل واهتمام عامة المسلمين،وهي مسألة مرتكب الكبيرة .

إن لمذهب الاعتزال جذوره العميقة ، إذا ما تتبعناه تاريخياً وسياسياً . فقد بدأ منذ الفتنة مذهب (الاعتزال) بمعنى الابتعاد والانفصال أو الحياد ، ثم اختلط المعنى الديني بالمعنى السياسي حتى أيام واصل .

كما أنه من الناحية المذهبية العقائدية كانت هناك عدة تأثيرات سابقة من الذين ذهبوا إلى القول بالقدر خيره وشره من الإنسان ، واتصالات بالمجبرة من اصحاب الجهم بن صفوان وتأثر بهم في مسألة خلق القرآن ونفي الرؤية .

يقول نيبرج : « إن الاعتزال أول ما نشأ من القدرية ، وهي فرقة من فرق السلف كانت تقول بالقدر خيره وشره من العبد ، وباختياره في أفعاله ليعاقب عليها أو يثاب [1] » .

(١) مقدمة كتاب (الانتصار) ص ٤٩

ويقول الشهرستاني : إن الاختلافات في الأصول حـــدثت في آخر أيام الصحابة حين ظهرت بدعة معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الاسواري في القول بالقدر ، وإنــكار إضافة الخير والشر الى القدر ونســـج على منوالهم واصل بن عطاء [1] .

ويورد طاش كبرى زادة في (مفتاح السعادة) : قيل كان اول من احدث مذهب الاعتزال واخترعه الإمام ابو هاشم وأخوه الإمام الحسن بن محمـد بن الحنفية . كما يثبت طاسن كبرى زادة ان واصلا أخـذ عن أبي هاشم عبدالله ابن محمد بن الحنفية [2] .

ويقول ابن خلدون في مقدمته : « ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولـــع الناس بالتدوين والبحث في سائر الانحاء ، وألف المتكلمون في التنزيه، حدثت بدعة المعتزلة [3] .

وابن المرتضى في (المنية والأمل) يذهب إلى أن مذهب الاعتزال يرجع الى الصدر الاول للاسلام ، وعدّ من الطبقة الاولى للمعتزلة الخلفاء الاربعـــة وعبدالله بن عباس وعبدالله بن مسعود وغيرهم ... والذي يظهر من كلامـه انه يريد ان يعد معتزلياً كل من ذكر له من الصحابة والتابعين قول يدل على ان الإنسان حر الإرادة او يدل على انه يرى الحسن والقبح العقليين ، لانه استدل مثلا على أن ابا بكر وابن مسعود يريان مذهب الاعتزال بأنهما قالا في المرأة المفوضة في مهرها برأييهما ، اي انهما يقولان بالحسن والقبـح العقليين ، ولذلك حكما بالرأي [4] .

لكن أغلب المؤرخين يقرنون بداية ظهور مذهب الاعتزال بالواقعة الشهيرة التي حدثت في مجلس الحسن البصري وانفصل ، او اعتزل ، اثرهـــا واصل

(١) الملل والنحل : ج ١ ص ٢٩ .
(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية للشيخ مصطفى عبد الرازق . ص ٢٨٧
(٣) المقدمة ص ٤٦٤ ط . التجارية .
(٤) أحمد امين / فجر الاسلام ص ٢٩٦ .

وعمرو وطفقا يدعوان لمذهبهما الجديد .

يقول البغدادي [١] : « ثم حدث أيام الحسن البصري خلاف واصـــل بن عطاء الغزال في القدر وفي المنزلة بين المنزلتين ، وانضم اليه عمرو بن عبيد بن باب في بدعته ، فطردهما الحسن عن مجلسه ، فاعتزلا الى ساريـــة من سواري مسجد البصرة ، فقيل لهما ولأتباعهما (معتزلة) لاعتزالهم قول الأمة في دعواهم ان الفاسق من امة الاسلام لا مؤمن ولا كافر » .

ويذكر أبو مظفر الاسفرايني شيئاً من هـــذا القبيل [٢] . ويذكر نيبرج القصة غير مفصلة مبيناً أن عمراً وواصلاً (وسعا مجال القدرية وأدخلا فيهـا ملاحظات جديدة) [٣] .

لكن الشهرستاني يروي القصة كاملة حيث يقول : [٤] « والسبب في القول بالمنزلة بين المنزلتين انه دخل واحد على الحسن البصري فقال : يا امام الدين ! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر ، والكبيره عندهم لا تضر مع الايمان ، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الايمان ، ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً ؟ . .

فتفكر الحسن في ذلـك . وقبل أن يجيب قال واصل بن عطاء : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر . ثم قام واعتزل إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من اصحاب الحسن . فقال الحسن : اعتزل عنا

---

(١) الفرق بين الفرق . ص ٢٠ – ٢١

(٢) التبصير في الدين . ص ٢٩

(٣) مقدمة (الانتصار) . ص ٤٩ – ٥٠

(٤) الملل والنحل . ص ٦٧ – ٦٨

واصل . فسمي هو وأصحابه معتزلة » .

من هذه القصة يتضح لنا ما يلي :

١) أن هناك موضوعاً شغل تفكير المسلمين وهو موضوع مرتكب الكبيرة.

٢) أن هناك صراعاً ومواقف مختلفة منه . فالخوارج يكفرونه ويسمونه (كافراً) والمرجئة يعتبرونه (مؤمناً) والحسن البصري يسميه (منافقاً) بينما سماه واصل (فاسقاً) باسمه المعروف به ، لا مؤمن ولا كافر .

٣) أن واصلا قد كوّن آراءه قبل هذه الحادثة أو السؤال ، وإلا لما سبق أستاذه في الإجابة ، ولما قام من فوره يقرر رأيه ويشرحه لو لم يكن مستعداً لذلك .

٤) أن هذه الواقعة كانت بمثابة (الإعلان الرسمي) لمذهب المعتزلة وانفصال قادتهم عن الحسن البصري الذي تشربوا منه بلا ريب بعض آرائه .

الاتصال :

عرضنا – في إيجاز – لنشأة المعتزلة ، وقررنا أن لمذهب الاعتزال بدايات سياسية ودينية قبل الاعلان الرسمي عنه في حلقة الحسن البصري على يد واصل وعمرو بن عبيد . وينبغي علينا الآن أن نعرض اصلات المعتزلة قبل الاعلان وبعده – بمختلف التيارات والمذاهب والديانات حتى نرى مقدار تأثرهم وتأثيرهم – خصوصاً في ميدان التفكير العقلي، وتغليب العقل على سواه . وقد يحلو لكثيرين من دارسي الفلسفة الاسلامية أن يقرروا أن المتكلمين – وفي مقدمتهم المعتزلة – لم يتأثروا بأية تيارات خارجة عن صلب القرآن والاسلام بصفة عامة، وأن ما بحثوه من مشكلات واختلفوا فيه – كمشكلة القدر ومدى فاعلية العبد والاختيار والسمع والعقل– شيء يعرض لجميع العقول الانسانية، ولجميع الديانات بعد مرحلة معينة من القبول والنضج .

لكن هذا رأي فيه كثير من التعسف ، إذ لا يستطيع امرء انكار تداخل

الثقـــافات واتصالها بعضها بالبعض الآخر ، وتأثرها ايضاً – ولو في الخطة والاسلوب .

كذلك يقف في الجانب الآخر من يقول بأخذ المتكلمين – وخاصة المعتزلة – عن غيرهم من الفلاسفة واليهود والنصارى، بل والصابئة والزردشتية والمانوية . وهؤلاء فريقان :

مؤرخو الفكر الإسلامي الأقدمون – وفعلوا هـــذا بقصد تشويه صورة المعـــتزلة – وهم في الأغلب خصوم لهم – بنسبة آرائهم للمخالفين في الدين والعقيدة والمذهب ، وتحقيرهم لدى العامة . والفريق الثـاني هم المستشرقون والمهتمون من الغربيين بالدراسات الإسلامية ، بعضهم عن حسن نية وبحث من أجل العلم والحق ، وبعضهم ليدلل على عدم أصالة الفكر الاسلامي . وهم في هذا جد مخطئون : إذ ماذا يضير الفكر الاسلامي أن يأخذ عن غيره بعض المسائل المشتركة بين العقول ، أو يأخذ أسلوب معالجته لهذه المسائل، اذا كان غيره سيأخذ عنه هو الآخر بحكم التطور البشري وحتمية تكون الحضارات ؟ وما دامت المسائل الكبرى نابعة من كتاب الاسلام الأول ، القرآن الكريم ، ناقشها احيانـــاً بإفاضة ، أو أشار إلى بعضها إشارة موجزة ، تاركاً العقول تعمل عملها الذي خلقت من اجله ، وهو التفكير والتدبر والنظر ؟..

إن المسائل العقلية شيء يعرض لكل العقول ، وليس من ضير في ان يتفق فلاسفة الاسلام ومفكروه مع غيرهم في نتائج البحث ، وإن اختلفوا في السبل والمنهج ، أو العكس .

على كل حال ،فإنني أميل إلى القول بان المعتزلة كانوا من سعة الافق والاستعداد لتلقي العلم والمعرفة وإشعاعها على درجة كبيرة جـــداً ، مما يسر لهم دراسة الفلسفة اليونانية ، والمذاهب الفارسية والهندية ، والديانات اليهودية والنصرانية ، الى جانب احتكاكهم عن طريق التأييد أو الهجوم بالمذاهب التي نشأت في حضن الاسلام من رافضة وخوارج ومرجئة وشيعة وغيرهم .

يقول الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة عن النظام مثلاً : « ونعرف عنه أنه أمعن في قراءة كتب الفلاسفة وأنـــه كما يقول ابن المرتضى حفظ القرآن والتوراة والانجيل والزبور وتفسيرها [1] .

---

(١) ابراهيم بن سيار النظام : آراؤه الكلامية والفلسفية . ص ١٠

المؤثّرات في اتجاهات المعتزلة العقليّة

المؤثرات في اتجاهات المعتزلة العقلية

لا بأس لدينا هنا من أن نشير إلى المؤثرات التي حددت خط سير المعتزلة ومنهجهم العقلي ، ما دام بحثنا ينصب على النزعة العقلية لديهم ، حتى نكون على بينة من أمرنا وامرهم ما دمنا قد قررنا ان نشأة المعتزلة لا تخلو من تأثر على أي حال .

وأول ما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال – وفي مجال علم الكلام بصفـة عامة – هو :

القرآن الكريم

وقد أشرنا في ايجاز الى ما جاء في القرآن الكريم من إشادة بالعقل وتمسك بتحكيمه في أي خلاف أو صراع ، واللجوء اليه في معرفة الخالق سبحانـه وحقوقه على عباده . فالقرآن – كما سبقت الأشاره – كتاب فيه من اسباب النظر ودواعي التفكير الشيء الكثير . بـل هو يحتوى على آراء ونظريات شاملة في الكون والوجود ومسائل ما وراء الطبيعة ، إلى جانب مـا اتى به في ميدان العلم الطبيعي (أو ما نسميه بالتجريبي اليوم) مما وسّع الأفق أمام

إعمال الفكر عند المسلمين . فالقرآن كتاب ميتا فيزيقي ، علمي ، فضلاً عن كونه كتاباً دينياً يحتوي على العبادات والشعائر الدينية وكيفية أدائها . وهو زيادة على ذلك بعيد كل البعد عن الاساطير الخرافية ، او القصص الخيالية التي نجد الكثير منها في كتب الديانات الأخرى . بل توشك ان تعتمد عليها اعتماداً كلياً .

وكما يقرر الدكتور ابو ريدة من أنه ينبغي ألا نهمل أثر القرآن في تطور مباحث المتكلمين وفي مناشئها . وقد جاء في القرآن مسائل هي من أوائل ما عالجه اهل الكلام كمسائل القدر والتكليف والاختيار وفعل العبد ومسئوليته[١]

لكن المعتزلة عندما وجدوا آيات من أمثال : (من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها[٢] ، (كل نفس بما كسبت رهينة) [٣] ، (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)[٤] (قل يا أيها الناس قدجاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) . [٥] ما لبثوا أن أحسوا بأن هناك مجالاً واسعاً للحرية الانسانية في افعال العبد وقدرته على التصرف والفعل ، على الأقل لتبرير العقاب والثواب .

هم وجدوا في القرآن الكريم ترحيباً بأن يكون للانسان قسط وافر من حرية التصرف والتفكير .

فإذا ما اصطدموا بآيات تدل على الجبر والتقييد والحدّ من هذه الحرية من امثال : (كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء)[٦] ، ان الذين

---

(١) النظام — ص ٩٦

(٢) سورة فصلت. آية ٤٦

(٣) سورة المدثر . آية ٣٨

(٤) سورة الكهف . آية ٢٩

(٥) سورة يونس . آية ١٠٨

(٦) سورة المدثر . آية ٣١

كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم)[1] ، (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا كأنما يصّعّدُ في السماء)[2] لجأوا إلى التفسير والتأويل للآيات حتى تتفق مع ما يقضي به العقل، والتأويل لداعٍ عقلي جائز .

مؤثرات اسلامية :

برزت إلى جانب الاحداث السياسية العميقة الغور ، احداث اعتقادية جدلية – بحكم التطور العقلي – من أمثال الحديث في القدر والاختيار، ورؤية الله تعالى ، وخلق القرآن ومرتكب الكبيرة ... الخ . مختلطة بالسياسة والصراع على الامامة او الخلافة .

وكان طبيعياً – بعد أن فرغ المسلمون من الفتح او كادوا – أن يتفرغوا للمشاكل الجديدة ، اجتماعية ودينية وسياسية . فقد دخلت حياتهم عادات وتقاليد غريبة – بحكم اختلاطهم بالفرس وغيرهم من الأمم – وظهر في المجتمع فساد وانحلال سبب ضيقاً للمتمسكين بالدين وأثار جدلاً عنيفاً وخاصة في مسألة مرتكب الكبيرة . وفي الميدان السياسي كان الصراع محتدماً حول الخلافة أو الامامة . فنشأت فرق الخوارج والمرجئة وكوّن واصل رأياً جهر به في مرتكب الكبيرة ، وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين .

ولا شك أن واصلاً قد اتصل قبل أن يدلي برأيه (الجديد) بكثيرين وأخذ عنهم . منهم ابو هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية الذي قيل انه كان أول من أحدث مذهب الاعتزال واخترعه[3] والذي تربى واصل في أحضانه[4]

---

(١) سورة البقرة. آية ٦ – ٧

(٢) سورة الانعام آية ١٢٥

(٣) طاش كبرى زادة في (مفتاح السعادة) نقلا عن الشيخ عبد الرازق. تمهيد ...ص٢٨٧

(٤) د . نشار – نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام . ص ٢٦٦

واخذ عنـــه ، والحسن البصري الذي كان يتفق معه وعمرو بن عبيد في القول بالقدر – ولا شك ان تأثير الحسن كان كبيراً في هذه النقطـة بالذات ، وان قيل انه رجع عن هذا القول .

كما ان من المحتمل أن يكون واصل قـد اتصل بغيلان بن مسلم الدمشقي مولى الامويين [١] ، وكما يروي الشهرستاني ان المعتزلة في قولهم بالقدر إنمـــا سلكوا في ذلك مسلك معبد الجهني وغيلان الدمشقي [٢] .

اما دي بور [٣] فيذكر انه « اخذت تتميز بالتدريج مذاهب اسلاميـــة متسقة اكثرها انتشاراً – ولا سيما بين الشيعة – مذهب المعتزلة الذين جـاءوا خلفاء للقدرية وأقاموا مذهبهم على النظر العقلي » .

ونحن نعلم ان هناك طوائف كانت تقول بالقدر خيره وشره من العبد قبل ظهور المعتزلة .

وجاء في الفرق بين الفرق [٤] : أن هؤلاء اتبــاع واصل بن عطـاء رأس المعتزلة وداعيهم الى بدعتهم بعد معبد الجهني وغيلان الدمشقي .

أما عن صلة المعتزلة بالحسن البصري – الصوفي المحدث العالم الكبير – فهي لا تخفى على أحد . فقد كان تتلمذ له واصل وعمرو ، وبعض مواقفـــه – خاصة في رسالته الى عبد الملك بن مروان – تبرهن على اتفاقه في الرأي مع تلميذيه وان لم يجهر به ويدع اليه . وذلك اللين واليسر الذي أخذ به تلميذه الذي (اعتزله) يدل على رضاه ، او على الاقل عدم غضبه منه . كذلـك قوله لمعبد الجهني وعطاء بن يسار حين حدثاه عن ظلم بني امية وقولهم ان هذا بقضاء الله وقدره : « كذب أعداء الله » (٥).وأخيراً نرى المعتزلة تجتمع

---

(١) نفي المصدر ص ٢٦٩

(٢) الملل والنحل ص ٦٦

(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام . ص ٩٧ ط رابعة .

(٤) الفرق بين الفرق . ص ١١٧

(٥) الملل والنحل . ص ٦٤ ج ١

حول الحسن البصري الذي يصرح بأن كل شيء بقضاء الله وقدره (الا المعاصي)(١)

كل هذا يثبت تحرر الحسن البصري وميله الى القول بالقدر ، ويثبت تأثيره في المعتزلة وتضامنه معهم ولو من وراء ستار .

هناك شخصية اخرى لها وزنها، ولها تأثيرها أيضاً في تكون آراء المعتزلة وان وقفت منهم على طرفي نقيض ، وأعني بها الجهم بن صفوان .

كان الجهم جبرياً خالصاً ، والمعتزلة قدرية . لكن المعتزلة آمنت بالتأويل العقلي واعتبار حجة العقل مصدر المعرفة وهذا ما فعله الجهم (٢) .

الاتفاق في التأويل العقلي اذن كان العلاقة الرابطة بين المعتزلة والجهمية . ايجاب المعارف بالعقل قبل ورود السمع قاعدة يضعها جهم وتفسيرها : العقل يوجب ما في الاشياء من صلاح وقبح وفساد وحسن . العقل وحده هو الذي يفصل هذا قبل ان ينزل الوحي مقرراً ان هذا الشيء حسن وهذا قبيح . ولعل هذا الاصل الذي وضعه الجهم اتخذه المعتزلة فيما بعد وبنوا عليه المقولة المشهورة في المعرفة والتحسين والتقبيح العقليين .

وكان اتصال واصل بجهم عن طريق حفص بن سالم في ترمذ بخراسان ، وكانا يتفقان ايضاً في القول بنفي الصفات، وخلق القرآن ، واختلفا في القدر . وكان عجيباً ان يتفق الخصمان ويلتقي الضدان ، حتى نجد ان مذهب (سكون اهل الخلدين) لدى أبي الهذيل قريب من مذهب جهم (٣) .

لكن المعتزلة كانوا يتهربون من إثبات صلاتهم بجهم وينفونها ، بينما يعمل خصومهم على هذا الاثبات ، وان كان قد ثبت بالتاريخ أن المعتزلة القديمة قد ناظرت الجهمية وتبرأت منها (٤) .

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام . ص ٣٠٦

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٣

(٣) الملل . ص ٧٣

(٤) نيبرج في مقدمة (الانتصار)

كانت ايضاً هناك صلات (غير ودية) بين المعتزلة وبين طائفة المحدثين وكان المحدثون يحنقون على المعتزلة اشد الحنق ، لأن هؤلاء المعتزلة كانوا لا يدخرون وسعاً في تكذيبهم وشن الحملات عليهم، لأن اغلبهم لا ينقد احاديثه أو هي تتعارض مع العقل السليم ، أو يذهب مذهب التشبيه ، وفي مقدمتهم المحدث مقاتل بن سليمان الذي عاش في زمن واصل وعمرو .

كما اتخذ المعتزلة موقف الهجوم على الثنوية المتسترة والسمنية والرافضة ، وغيرهم ، وضد الخوارج والمرجئة . فكانت العلاقات بينهم وبين هذه الطوائف مشحونة بالعداء .

والحق أن بعضاهم اصول المعتزلة كانت موضوعة اولاً للرد على الرافضة والملحدين . والواقع أنهم لم يزالوا على أشد عداوة لهم حتى آخر امرهم [١] .

ثم هناك اخيراً السلفيون أو أهل السنة . . وهم الطائفة الكبرى التي تصارعت مع المعتزلة ونازلتهم حتى هزمتهم في نهاية الامر بانضمام الامام ابي الحسن الأشعري - المعتزلي السابق - اليهم ورجوعه عن آرائه الاعتزالية الى مذهب اهل السنة مما شكل ضربة عنيفة للمعتزلة ومذهبهم.. وهذا ما سنفرد له قسماً خاصاً بإذن الله

كان السلف يرون في اتباع الكتاب والسنة ، دون تأويل أو تفسير ، وفي التسليم بالقضاء والقدر ، وان العبد مسير حسب مشيئة الله وإرادته، وفي البعد عن المراء والجدل - الا اضطراراً - في العقائد وفي المسائل الدقيقة الحساسة .. يرون في هذا منجىً للمسلمين والاسلام ، متمسكين بالقرآن والحديث والسنة.

وكان المعتزلة على النقيض ، يغلبون العقل في التأويل على النقل ، ويتمادون في هذا التغليب الى ابعد مدى . وهذا ما ارث نار الخصومة بين الفريقين . وهي خصومة - على ما فيها من تفريق بين المسلمين - الا أن لها فوائد لاتنكر

---

(١) نفس المصدر . ص ٥٦

تتمثل في هذه الثروة الكلامية الرائعة التي خلفها لنا أجدادنا ، وفي هذا الجدل الذي ازال الصدأ عن العقول واطلقها باحثة ناقدة متفحصة في سبيل الحق الآسمى الذي طلبه الجميع .

فصلات المعتزلة اذن كانت كبيرة بمختلف الطوائف والفرق داخل الجماعة الاسلامية ، وان تباينت طبيعة هذه الصلات . فهي تارة علاقات اتفاق والتقاء في وجهات النظر ، وطوراً علاقات نفور وتطاحن وصراع. لكن الاحتكاك والتأثر والتأثير كان موجوداً على اية حال، والمتتبع لهذا الموضوع يجدمصداق ما نقول .

مؤثرات اجنبية :

والآن اشعر بأنه ينبغي علينـا ان نعرض للمؤثرات الأجنبية في الفكر المعتزلي ، خاصة فيما يتعلق بالنزعة العقلية لديهم .

ونحن وان كنا نتفق مع الاستاذ احمد امين والدكتورين علي سامي النشار ومحمد البهي ومن سار مسارهم ، في ان المشكلات التي عرضت للفكر الاسلامي هي اسلامية النشأة والبيئة ، الا ان هـذا لا يمنع من القول بان طرق او سبل او خطة معالجة هذه القضايا لا بد ان تتشارك وتتداخل، بحكم كونها مشكلات انسانية ايضاً تعرض لكل عقل انساني .

ولا بد ونحن ندرس طائفة كبرى من رجال علم الكلام الذي هو الى الفلسفة اقرب – من ان نرى علاقة هذه الطائفة بالفلسفة اليونانية وسواها من الفلسفات ذات الاثر الكبير في الفكر والثقافة العربيين. كذلك، ونحن ندرس علم الكلام المقابل للاهوت – يجب علينا ان نرى العلاقة بين مشكلات الديانتين النصرانية واليهودية وسواهما وبين المشكلات الكلامية الاسلامية . والا كنا بغير هذا نبعد كثيراً عن الصواب . اذ لا شك ان نمو علم الكلام متصل باتساع الأفكار بـين المسلمين وازدياد معرفتهم بالثقافات الأجنبية على اختلاف الوانها . كما ان

المتكلمين – ومن اوائلهم المعــتزلة – هم اول من قرأ الثقافات الاجنبية وتأثروا بها [1] .

اولاً : الفلسفة :

يلاحظ الدارس أول مــا يلاحظ أن أغلب مؤرخي المعتزلة الأقدمين – واكثرهم من أهل السنة او الاشاعرة – يرجعون جل أفكار قادتهم الى الفلاسفة اليونانيين خاصة ، كأنما (يتهمونهم) بالأخذ من مصدر غير اسلامي، ويوحون للقارىء بخروج المعتزلةعن دائرة الدين ما داموا قد سمحوا لآرائهم ان تتكون بفضل الفلسفة (الملحدة) .

في « الملل والنحل » لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني مثلا يكاد يختم كل جملة عن أحد شيوخ المعتزلة بارجاع آرائه للفلاسفة ، وانه موافق لهم في كيت وكيت ، وأخذ عنهم كذا وكذا .

فهو يقول مثلاً : وإنما شرع أصحاب واصل فيها (مقـالة نفي الصفات) بعد مطالعة كتب الفلاسفة . [2] وعن ابن الهذيل انه اقتبس هـذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا ان ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجـه ص ٧١ وان ابراهيم النظام قد طالع كثيراً من كتب الفلاسفة وخلط كلامهم بكلام المعتزلة – ص ٧٧ ، وأخذ مقالة (الاصلح في الآخرة) عن قدماء الفلاسفـة – ص ٧٨ ، كما وافق الفلاسفة في نفي الجزء الذي لا يتجزأ – ص ٧١ ، وأخذ مقالتـه في الظهور والكمون من أصحابها من الفلاسفة – كما ان أحمد بن حابط [3] والفضل الحدثي طالعا كتب الفلاسفـــة – ص ٨٨ – ويقرر الشهرستاني أن بشراً بن

---

(١) ابراهيم بن سيار النظام – د . ابو ريدة ص ٦٨ ، ٦٩

(٢) الملل ص ٤٥

(٣) أو خابط او حائط .

المعتمر اخذ عن الطبيعيين قوله بتولد اللون والطعم والرائحة .. كما اخذ معمر ابن عباد السلمي رأيه في حقيقة الانسان عن الفلاسفة ـ ص ٩٩، وكان الرجل يميل الى الفلاسفة – ١٠١ .

ونفس هذا الكلام يقوله عن الجاحظ ، الذي مذهبه هو بعينــه مذهب الفلاسفة – ص ١١٥ ، ويقول عن ابي الحسين البصري إنــه فلسفي المذهب هو الآخر .

هي تهمة إذن أن يطلع المعتزلة على الافكار والنظريات الفلسفية ، لكنهـا (تهمة) ذات فائدة عظمى في تاريخ الفكر الاسلامي .. فقد غذته باساليب جديدة للبحث ومنهج ، وقدمت له خطة عقلية زادت من وته وثباتــه ، وامدته بحجج يتقي بها الهزيمة عند النزال ..

وكان طبيعياً ان يتدارس المعتزلة الفلسفة ، وهم الذين عاصروا حركــة الترجمة العظمى ، وكان لهم وزنهم أيام المنصور ، كما كانوا أهل الحول والطول ايام المأمون .. وكان بديهياً أن تظهر التأثيرات الفلسفية في امثــال ابراهيم ابن سيار النظام وأبي الهذيـل العلاف وابن عثمان عمر بن بحر الجاحظ وغيرهم من فطاحل المعتزلة وكبارهم .

يقول ابن خلدون [١] : « ثم كان من بعد (أرسطو) في الاسلام من أخذ بتلــك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل الا في القليل . » ولعل المعتزلة كانوا في مقدمة دارسي أرسطو وإن خالفه بعضهم وعارضوه .

ويقول : « ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بموضـوع الآلهيات ومسائله بمسائلها فصارت كأنها فنُ واحد . »

اما المقريزي فيذكر انه اشتهرت مذاهب الفرق من القدرية والجهميــة والمعتزلة والكرامية والروافض والخوارج والقرامطة والباطنية ، حتى ملأت

---

(١) المقدمة . ص ٤٩٥ ط المكتبة التجارية

الارض ، « وما منهم الا من نظر في الفلسفة وسلك من طرقها ما وقع عليه اختياره . »[1]

ويقرر نيبرج ان المعتزلة قامت بأشد ما احتاج اليه الاسلام في ذلك العصر وهو الاستعانة بما استعانت به الديانات الاخرى من اسلوب متين وطريق فلسفي لابراز ما يكمن في الدين من القوى والفضائل[2] .

كما كان المعتزلة اسرع الفرق للاستفادة بالفلسفة اليونانية وصبغها صبغة اسلامية ، والاستعانة بها على نظرياتهم وجدالهم .[3]

فاستعانة المعتزلة بالفلسفة اذن امر مقرر — سواء في الاخذ بأسلوبها في الجدل والكلام — وهذا ما نصرهم على كثير من خصومهم وجعلهم مبرزين في مجال الكلام — أو في الاخذ ببعض الآراء الفلسفية المحضة ، كما يظهر عند النظام وابن الهذيل والجبائي والجاحظ وغيرهم ، من امثال مسألة الكمون ، وسكون اهل الخلدين، والديانة العقلية ، ومسائل الجوهر والعرض،والتولد... الخ .

لكن هذا لا يعني ارتماء المعتزلة في احضان الفلاسفة بلا تمييز ولا حذر . فقد كانت لهم شخصيتهم الاسلامية المميزة ، والمدافعة عن الدين ، المتسلحة بأقوى الاسلحة وامتنها ، والمناقضة في كثير من الاحايين لآراء ارسطو وسواه من فلاسفة اليونان كما يظهر عند النظام .

ثانياً : النصرانية :

من المشكلات التي عرضت للاسلام كما عرضت للنصرانية من قبل ، مشكلة التشبيه والتنزيه ، والجبر والاختيار، والرجعة ، وربما اضفنا مقارنة (الكلمة)

---

(١) خطط المقريزي . ج ٤ ص ١٨٤
(٢) نيبرج ـ مقدمة (الانتصار) ص ٥٨
(٣) احمدامين ـ فجر الاسلام ص ٢٩٩

بمشكلة خلق القرآن . الى غير ذلك من المشاكل المشتركة بين الديانات .

وقد يحلو لبعض المستشرقين المسيحيين ان يردوا ـ في تعسف احياناً ـ نشوء هذه المشكلات في الاسلام الى تأثيرات نصرانية محضة. اذ يقول دي بور[1]: غير أننا لا نخطىء الصواب اذا قلنا ان اختلاط المسلمين بالنصارى وتلقيهم العلم عنهم في المدارس كان له عظيم الاثر .... ونحن نجد بين مذاهب المتكلمين الاول في الاسلام وبين العقائد النصرانية شبهاً قوياً لا يستطيع معه احد ان ينكر ان بينهما اتصالاً مباشراً . »

ويقول في موضع اخر بالنسبة للمعتزلة : « لكن الديانة التي كان اثرها في الاعتزال اكثر من اثر غيرها هي المسيحية[2] » .

ويقرر ماكس هورتن في تحيز ظاهر واضح ان علم العقيدة المسيحية او علم الكلام المسيحي في الشرق يؤكد قبل كل شيء الاختيار الانساني ، ومسؤولية الانسان الكاملة في تصرفاته .. ولما كانت أدلة هذا الرأي مقنعة للأحرار المسلمين (رجال الاعتزال) رأوا من انفسهم لا محالة اتباعه[3] .

هذه هي العلاقة العامة بين بعض الآراء النصرانية وعلم الكلام وبعض مباحثه . اما العلاقة الخاصة بالمعتزلة ، فإن هناك شخصيات واتجاهات في النصرانية تحددها . والمؤرخون الاسلاميون يميلون ـ كما ذكرنا – إلى (اتهام) المعتزلة بالاخذ عن النصارى ، ويؤيدهم المستشرقون تأييداً غير خالص لوجه الله والعلم .

ويقارن الكثيرون بين المعتزلة والمذهب النسطوري ، الذي نشأ في المشرق ،

---

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام . ص ٩٤

(٢) نفس المصدر ص ٢٤

(٣) فلسفة الاسلام ص ٢٠١ ط ميونيخ سنة ١٩٢٣ م ٦ (نقلاً عن الجانب الالهي من التفكير الاسلامي) . وكثير من المستشرقين يحاولون ـ بكل الوسائل ـ ارجاع الفضل في اي تفكير اسلامي الى المسيحية نفياً لاصالة الفكر الاسلامي وقيمته الكبرى .

لما فيها من تحرر ودعوة لسيطرة العقل وتحكيمه .

كما انهم يشيرون الى تأثير شخصيات مسيحية من امثال يحيى الدمشقي وتيودور أبي قرة .

جاء في (الملل والنحل) أن : « اضافة نسطور الى النصارى كاضافة المعتزلة الى هذه الشريعة [1] ، قال : ان الله واحد ذو اقانيم ثلاثة ، الوجود والعلم والحياة ، وهذه الاقانيم ليست زائدة على الذات ولا هي هو . واشبه المذاهب بمذهب نسطور في الاقانيم أحوال أبي هاشم من المعتزلة ، فانه يثبت خواص مختلفة لشيء واحد [2]

وكان ليحيى الدمشقي - مستشار معاوية ويزيد - اتصال وثيق بالمتكلمين [3] حتى ألف كتاباً للرد على حجج شيوخهم . وكان يقول في محاوراته : اذا قال لك العربي كذا وكذا .. اجبه بكذا .

كما ان اتصالات تلميذه تيودور ابي قرة بهم معروفة مشهورة . جاء في (نفح الطيب) انه حدث مناظرة بين العتابي وابي قرة في المسيح عليه السلام .

وجاء في (الاغاني) ان اعشى بكر اخذ القول في القدر عن العباديين نصارى الحيرة ، لقنوه اياه حين كان يأتيهم ليشتري الخمر .

وذكر المقريزي في (خططه) ان اول من تكلم في القدر هو معبد الجهني المتوفي سنة ٨٠ هـ . اخذه عن نصراني اسمه ابو يونس سنسويه (أو سوسن) الاسواري .

---

(١) الملل . جـ ١ ص ٥٣٥

(٢) نفس المصدر ص ٥٣٦

(٣) أعنى المهتمين بالجدل الديني . اذ لم يكن « المتكلمون » - نسبة الى « علم الكلام » قد تميزوا بعد .

وروى ابن قتيبة ان غيلان الدمشقي اكبر داعية للقدر ـ وقد اخذ عنه واصل ـ كان قبطياً واسلم ويسميه (غيلان القبطي) .

والحق ان الشبه بين ما عالجه المعتزلة وعالجه يحيى الدمشقي ليس وليد الصدفة ، في مسائل القدر والارادة وحرية الانسان .

كان الدمشقي يقول بفعلين : جبري ، ليس للإنسان سلطان فيه وهو من الله . واختياري ، يستحق الانسان عليه المدح والذم وهو باختيار . وكان يقول ان الله لم يرد الحشر ولا يرضاه .

ويرى ان الإنسان يجب ان يتمتع بحرية الإرادة لأنه حيوان عاقل مزود بالعقل الذي يميز به بين الاشياء وبالقدرة على العمل ... يضاف الى هذا ان افعال الانسان تستحق المدح والذم ، ولا يمكن ان تكون كذلك الا اذا كان الانسان حراً في اختيارها . ان حرية الارادة اعظم ما وهب الله عباده ، فاذا انكرناها عليهم كان ذلك منتهى السخف [1] .

وهذا هو رأي المعتزلة في تبرير التكليف والعقاب والثواب بالضبط ، يتفقون فيه مع يحيى ، او يتفق فيه معهم ، فالمسألة لا تخلو من تأثر وتأثير على اية حال .

لكن .. هل هو تأثير كامل مطلق ؟ ..

كلا بلا ريب . فان الأمر لا يعدو ان تكون هذه الديانات ـ ومنها المسيحية ـ كانت تقترح على المعتزلة موضع النزال فقط . اما نشأة هذه المشكلات الاولى فاسلامية بحتة ـ كما يرى احمد امين [2] . اي ان التأثر كان في الطريقة والمنهج ، أما صلب الموضوع فيطرأ لكل جماعة انسانية متدينة (أعني ذات دين) كما يرى الدكتور محمد البهي [3] . تعالجه بعد ذلك في

---

(١) زهدي جار الله في كتابه (المعتزلة) ص ٢٩

(٢) ضحى الاسلام ـ جـ ا ص ٤٦

(٣) الجانب الالهي من التفكير الاسلامي .

نطاقها الخاص ومن زاويتها الخاصة ، وان اتفقت مع غيرها في الرأي كان الاتفاق غير مستغرب .. اذ العقل البشري واحد كما يرى المعتزلة انفسهم .

ثالثاً : اليهودية :

ان صلات اليهود بالمسلمين ضاربة بجذورها من قديم .. ولقد لاقى الرسول الكريم منهم عنتاً كبيراً وعناءً اكبر، لما واجهوه به من جحـــود ونكران ومحاربة . وكانوا ـ وهم جيرانه في المدينة ـ يجادلونه ويحاورونه وينافقونـه أيضاً .

وكانت آيات كثيرة من القرآن الكريم ترد عليهم ، أو تبين انحرافهـم ، أو تسرد تاريخهم . وكان طبيعياً ان يحتك المسلمون بهم ، عن طريق الجدل والخصام ، وان تتم صلات .

يقول الدكتور علي سامي النشار : « قابلت اليهودية الاسلام اول نشأته على حدود يثرب واشتبكت معه اشتباكات عقلية عنيفة . جادل الوحي اليهود في المدينة وناقشهم مناقشة حادة . وعندما فر اليهود الى الشام ، واستـولى المسلمون عليه كما استولوا على اليمن ، بدأت منذ ذلك الحين مجادلات عنيفـة بين علماء الديانتين [1] .

ونحن لا ننكر اطلاقاً ان اليهود ساعدوا على قيام علم الكلام بمـا ادخلوه من عقائد مختلفة واحاديث موضوعة دعت شيوخ المعتزلة الى مناقشة هـــذه العقائد وانكار هذه الاحاديث[2].

فاليهود اذن ساهموا في نشأة علم الكلام باضطرارهم شيوخ المسلمين ـ وفي مقدمتهم المعتزلة ـ الى معارضتهم وجدالهم ومناقشتهم والرد عليهم .

وبالنسبة للمعتزلة ايضاً ـ وكما يورد زهدي جار الله ـ كان لليهـود بلا

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ـ ج ١ ص ٤٠ ط ثانية

(٢) نفس المصدر ص ٤٨

شك بعض الاثر في ظهور المعتزلة ، ويظن انهم هم الذين نشروا مقالة خلق القرآن ، فعبيد بن الاعصم ـ عدو رسول الله ﷺ عند ابن الاثير قال بخلق التوراة ، وابن اخته طالوت اول من صنف في خلق القرآن . وعند الخطيب البغدادي ان والد بشر المريسي ـ المعتزلي ـ كان يهودياً . وعند ابن قتيبة ان اول من قال بخلق القرآن هو المغيرة بن سعيد العجلي، وهو من اتباع عبدالله ابن سبأ اليهودي ، الذي لعب دوراً كبيراً جداً في انحرافات الشيعة ونشأة الغلاة منهم ، مؤلهة علي بن ابي طالب .

والحقيقة ان نفس المشكلات التي عالجها المعتزلة ـ وعلماء الكلام بصفة عامة كل من وجهة نظره ـ كانت معروفة لدى علماء اليهودية . مشكلات التشبيه والتنزيه ، والجبر والاختيار ، وحتى الرؤية والرجعة وما ماثلها . بل بان التشبيه فيهم طباع ـ كما يقول الشهرستاني .

بل يذهب البعض الى ان التسمية نفسها (المعتزلة) ترجمة حرفية لاسم إحدى طوائف اليهود المتحررة وهي طائفة الفريسيين او (الفروشيم) PHARISEES التي تعني بالانجليزية SEPARATED المنفصلين او المعتزلة .

ولعل اليهود الذين اسلموا سموا المعتزلة بهذا الاسم لما وجدوا بين الطائفتين من تقارب في الافكار والآراء .

ويقارن الشهرستاني فيمعرض حديثه عن القدر عند اليهود فيقول : «واما القول في القدر فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين في الاسلام . **فالربانيون منهم كالمعتزلة فينا** والقراء كالمجبرة » [1]

لكن . .

هل من الضروري القول بأن المعتزلة – وغيرهم من مفكري الاسلام – أخذوا آراءهم عن سواهم من الفلاسفة والنصارى واليهود ؟ . .

---

(١) الملل والنحل ـ ص ١٣٢ ج ١

طبعاً هذا غير معقول ، فان المسألة لا تعدو نطاق التأثر المحدود في سبل ومنهج وميدان المعالجة . أما صلب الموضوع ، ونتائجه ، فإسلامية بحتة ؛ بدليل وقوف المعتزلة في وجه الملاحدة والنصارى واليهود والرد عليهم بكل قوة وعنف وحرارة ، مما حفظ للاسلام هيبته وصلابته .

والاتفاق – في بعض الجوانب – بين النساطرة والفريسيين من جهة وبين المعتزلة من جهة اخرى ، لا يعني بالضرورة تتلمذهم لهم ، بقدر مـا يعني ان ظهور هذه الطائفة (الرجـال الاحرار او العقليين) ضرورة دينية واجتماعية وتاريخية مرحلية في كل دين وعقيدة .

ومسائل القدر ومحاولة تحقيق حرية الانسان،والبحث في الحرية الانسانية ، ينشأ بحسب ضرورة فلسفية للعقل الانساني – كما يرى مكدونالد [١] .

ويرى د. أبو ريدة ان أحداً لا يستطيع ان ينكر أن الدولة الاسلاميـة قد شملت أمماً بأكملها بمالها من علوم أو فلسفة أو دين ، وكان الفكر الاسلامي وليد الاتفاق أو التعارض بين الاسلام وما عداه . واذن فقد تأثرت الثقافـة العربية بما أحاط بها أو وصل الى أهلها من الثقافات الاجنبيـة ، وهذا امر طبيعي في كل ثقافة . [٢]

---

(١) هامش (تاريخ الفلسفة في الاسلام) ص ٩٤

(٢) ابراهيم بن سيار النظام ؛ وآراؤه الكلامية والفلسفية . ص ٧٨

غاية المعتزلة من الاتجاه العقلي

في علم الكلام

غاية المعتزلة من الاتجاه العقلي في علم الكلام

بعد أن بلغ رسول الله ﷺ دعوتـه ، ثم لحق بالرفيق الأعلى . وبعـد ان فرغ المسلمون أو كادوا من فتوحهم وغزواتهم ، كان طبيعياً أن تتدخل عوامل جديدة في توجيه الافكار الدينية ، وربما تحريفهـا . وكان للبلاد المفتوحـة (كفارس وبلاد كثيرة انتزعت من سيطرة الروم) اثر واضـح في نشأة فرق متعددة تدعو دعوات منحرفة خارجة عن الاسلام، وان كانت تتستر بستاره وتتخفى في ردائه . منها ما قام لغرض سياسي ، كغلاة الشيعـة والرافضة ، والمشبهة والقرامطة والباطنية ، ومنها ما هدف إلى افساد الاسلام وتفسيخـه كالفرق المنبثقة عن اليهودية والثنوية والمانوية والسمنية والصابئة وغيرها .. وكلها تهاجم الاسلام ومعاقله بعنف وضراوة ، وتحاول التشكيك فيـه وفي قيمته كدين متـكامل ، حتى سادت موجة من الزندقة والالحـاد والفسق والانحلال الخلقي نتيجة للبعد عن منبـع الدين الصافي النقي .

وكان من الواجب ، والضروري ، أن تنهض طائفة بعبء الدفـاع عن الاسلام ، ورد كيد الكائدين . ووجد في المعتزلة خير من قام بهـذا الدور (التطهيري) المجيد ، ضد جميع الفئات تقريباً .

وماذا يكون السلاح في هذه المعركة الحادة الضارية ؟ ..

أهو القرآن والسنة والحديث وحدها ؟ ..

انها لا تكفي في مجال الاقناع والجدل .. لا لضعف فيها .. وانما بالنسبة للمجادل الذي لا يؤمن بهذا القرآن وهذه السنة وهـذا الحديث ، ولا يسلم بقضاياها ..

فليكن السلاح إذن العقل البشري وحده .. العقل الذي ميز به الانسان عن الحيوان .. العقل الذي لا جدال بعد حجته القاطعة .

وهكذا كان الاتجاه العقلي سائداً علماء المعتزلة . بحكم طبيعة النقاش ، وبحكم تكونهم الثقافي . وبحكم إيمانهم المتحرر بالعقل وقيمته .

وساروا في هـذا التيار ، حتى وجدوا انفسهم حملة لوائه والمعروفين به ، وحماته دون منازع .

إن علم الكلام كما يعرفه ابن خلدون اجمالاً ليس سوى (علم يتضمن الحجاج عن القواعد الأيمانية بالأدلة العقلية ،والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة[1] .

لكن المعتزلة والحق يقال – تمادوا في هـذا الاتجاه حتى قلبوا التعريف فجعلوا السنة والعقائد في خدمة العقـل .. لا العكس .. وكان هذا لفرط اعتزازهم به واعزازهم له من جهـة ولطبيعة المهمة من جهـة اخرى . وحدث هذا بتطور الأمر عندهم ؛ فقد كانوا في البداية وهم من خواص اهل العلم والنظر ، واجهوا هذا الأمر الخطير – التشبيـه والتجسيم لدى غـلاة الشيعة ومجسمة خراسان واليهود – يحطم عقائد المسلمين ، فلجأوا إلى القرآن وإلى السنة الصحيحة يتأملونها ثم يضعون فكرتهم عن الله[2] .

---

(١) المقدمة ص ٤٥٨

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ص ٣٢٧

الدفاع عن الاسلام إذن ، ضد اعدائه من ابناء الديانات الاخرى ، وضد متبعيه المنحرفين ، هو غرض المعتزلة وهدفهم ، ومـا عملوا لغير هذا قط . وكانوا أول من امتشق حسام الكلام ، وسيف العقل . ينافحون به عن الدين القويم . فإن ثمّ ما يبرر القول مثلاً بان دفاع النظام كان الى حد ما من وجهة نظر فلسفية عقلية ، وان كان الباعث الاكبر عليه الدين[1] .

يقول نيبرج في مقدمة (الانتصار) بعد سرد من عنى المعتزلة بالرد عليهم: ولم يسبقهم في الاسلام أحد الى الرد بهذا المقدار[2] . »

أما الخياط – المعتزلي الكبير – فانه ، في مجـال رده على ابن الروندي ، يتوعده ، ويبين فضل المعتزلة في الدفاع عن الاسلام فيقول: « وويل صاحب الكتاب.. من للذبّ عن التوحيد لولا ابراهيم (النظـام) واشباهه من علماء المسلمين الذين شأنهم حياطة التوحيد ونصرته والذب عنه عند طعن الملحدين فيه ... لأنهـم (المعتزلة) المعنيون بالتوحيد والذب عنه من بين العالمـين (ص ١٣) ... وهل على الارض أحد رد على أهل الدهر الزاعمين بأن الجسم لم يزل متحركاً وحركاته محدثة سوى المعتزلة ؟ (ص ١٧) ... ثم أعلمك ان المعتزلة قد غاظت هذا الماجن (ابن الروندي) بنصبها للملحدين وإفسادهـا لمذاهبهم ووضعها الكتب عليهم (ص ٢٣) » :

هذه لمحة خاطفة ونظرة عجلى إلى موقف الدفـاع العقلي الذي اتخـذه المعتزلة من الاسلام ، وهو موقف لا ينكره عليهم أحد من المنصفين ، وان كان بعض خصومهم من السلفيين قد حاولوا تشويه الصبغة الرائعـة لهذا الموقف .

---

(١) ابراهيم بن سيار النظام – ص ٦٨ ، انظر مثلا رده الفلسفي على الدهرية لاثبات بداية العالم وتناهيه – دليل القطع في الكواكب . ورده على المانية والديصانية ص – ٥٨

(٢) نشأة الفكر الفلسفي ... ص ٥٤ – ٥٧

وكلنا يعرف كيف كان المعتزلة حائزي قصب السبق في ميدان المنافحة عن الاسلام ، حتى كان الرشيد – وهو الذي اضطهدهم وسجنهم – يلجأاليهم حين اليأس ليذودوا عن حمى الاسلام .

هم وقفوا ضد كل الطوائف والفرق ، وقطعوها ، وتغلبوا عليها ، وكان رجالهم من أمثال النظام وابن الهذيل مضرب المثل في قوة الحجة ، ومتانة البرهان ، وصلابة الدليل .

وليس هذا هو المجال الذي ينبغي علينا فيه الاستطراد في الموضوع . فلنحاول الآن أن نلقي ضوءاً على بعض المشكلات التي عالجها المعتزلة، ونخص منها المشكلات العقلية المتصلة بالدين ، او بتعبير آخر المشكلات الدينية ذات الصبغة العقلية .

مشكلات عقلية - دينية

مشكلات - عقلية - دينية

الأصول الخمسة ـ الجبر والاختيار ـ العقل والسمع
الحسن والقبح ـ الصلاح والأصلح ـ التكليف واللطف
إرجاع مقالات المعتزلة إلى أصولهم الخمسة

لعله من الانسب قبل بداية الحديث عن المشكلات (العقلية) التي عالجها المعتزلة وتعرضوا لها ، ان نشير في يجاز الى الاصول الخمسة او المبادىء التي ارتكز عليها مذهبهم ، والتي هي – كما يقول الخياط – ليس يستحق اسم الاعتزال أحد حتى يجمع القول بها .

وذلك لأن ارتباط مقالاتهم – فيما بعد – يعود إلى هذه الاصول مجتمعة أو متفرقة ، وخاصة – فيما يتعلق بالنزعة العقلية – اصلاً : العدل ، والوعد والوعيد .

ونحن نحب أولاً أن نلاحظ أن الشهرستاني يثبتها أربعة أصول بدل خمسة ، وهي :

أصل التوحيد (ويندرج تحته مشكلات الصفات : كالكلام والارادة والسمع والبصر والرؤية والتشبيه) واصل العدل (ويشمل : افعال العباد ، الصلاح والأصلح، واللطف) ثم الوعد والوعيد (ويتضمن : العوض والخلود في النار بالكبيرة) واخيراً السمع والعقل (ويعني باصول المعرفة، الحسن والقبح، والتكاليف) .

لكن المشهور عن أصول المعتزلة انها خمسة ، هي : [1]

١ – القول بالتوحيد ، وفيه ان الله واحد لا شريك له من اي جهة كان .

٢ – القول بالعدل ، وفيه ان الله لا يحب الشر والفساد .

٣ – القول بالوعد والوعيد ، وفيه ان الله صادق في وعده ووعيده .

٤ – القول بالمنزلة بين المنزلتين وفيه ان صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ولكنه فاسق .

٥ – الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفيه تكليف المؤمنين بالجهاد وإقامة حكم الله .

ويلاحظ المرء أن اصل المنزلة بين المنزلتين ذو اهمية قصوى في ظهور المعتزلة ،حتى ان الكثيرين يذهبون الى القول بأنهم ما سُمّوا معتزلة الا لقولهم باعتزال مرتكب الكبيرة المؤمنين والكافرين ، في منزلة وسط . كما ان اصل التوحيد لعب دوراً كبير في اتجاهات المعتزلة من حيث رغبتهم المطلقة في تنزيه الباري جل وعلا ، مما ادى بهم إلى القول بخلق القرآن ونفي الصفات وغيرهما . وإن كنا نلاحظ في نفس الوقت ان مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يكاد لاينال حظه من النقاش والاهتمام وربما يرجع هذا إلى انه مبدأ عام يشترك فيه مع المعتزلة المسلمون جميعاً . (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) [2] (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) [3] .

***

نود ان نذكر أولا كلمة عن طبيعة المشكلات التي عولجت من قبل المعتزلة وغيرهم من علماء الكلام ، مستخلصين منها ما يدور حول بحثنا من

(١) مقدمة كتاب (الانتصار) ص ٥٠ - ٥١

(٢) سورة : آل عمران آية : ١٠٤ .

(٣) سورة : آل عمران آية : ١١٠ .

مشكلات عقلية ، أو يغلب عليهـــا الطابع العقلي ، وهي التي تهمنا في هذا الموضع الآن .

فلقد اصطدم المعتزلة بخصومهم من مختلف الاتجاهات ، في جميع المجالات الكلامية تقريباً ، ولا زالت آثارهم التي اثبتها هؤلاء الخصوم شاهدة على هذا الامر حتى الآن . هم تكلمـــوا في الاصول والفروع ، وناقشوا جميع الآراء والمذاهب التي ظهرت في عصرهم ، دينية ، وسياسية ، واجتماعية ، وفلسفية ملبسين جدالهم ثوب العقل ، ومتسلحين به ومتخذينـــه مرشداً لهم في طريقهم الشاق الطويل .

وقد ظهرت منهم منـــذ اول أمرهم نزعة الى الاعتماد على العقل والى اقامة سلطان له ، الى جانب النصوص المنزلة . فحكموه في ارائهم بالاجمـال في معرفة الله وصفاته وافعـــاله ، وفي الحسن والقبح في الافعال وغير ذلك ، وظهر منهم الاستقلال في الرأي في كثير من المسائـــل ، ولذلك يسميهم الباحثون الاوربيون « اصحاب المذهب العقلي Rationalists » او « المفكرين الاحـــرار » ... وتتردد تسميتهم بالعقليين في كتابات كثير من الباحثين الاوربيين [1] .

ولنذكر كما بينا مراراً ان الموضوعات التي تعرض لها المعتزلة هي بصفة عامة (موضوعات انسانيـــة) شاملة بمعنى انها تعرض لكل عقل سليم . لكن طريقة المعالجة والتفصيلات هي التي تختلف بطبيعة الحال وتتباين .

الجبر والاختيار :

من أوائل هذه المشكلات (الازلية) التي خاض فيها شيوخ المعتزلة وكان لهم فيها موقف واضح محدد ، هي مشكلة الجبر والاختيار .

---

(١) د. أبو ريدة (ابراهيم بن سيار النظام ص ٦٧ .

هل الانسان مجبور على فعل ما يفعل ؟ ام هو مخير في فعله له حرية التصرف كيف يشاء ؟ .. أي هل نحن نطلق للإنسان حرية في العمل والفعل، ام هو مقيد بقدر مكتوب لا يحيد عنه ولا ينبو قيد شعرة ؟

هذه مشكلة دوخت من بحثوها ، وبرزت في كل الديانات والثقافات ونالت حظاً من النقاش والجدل ، وكان الفوز سجالاً بين المذهبين . في اليهودية والنصرانية مثلاً ظهر الاتجاهان ، وتبعهما اتباع وانقسمت الديانتان فرقتين رئيسيتين : أهل الجبر ، وأهل القدر . أي الذين يجعلون للانسان قدرة واستطاعة على التصرف الحر غير المقيد .

وكذلك حدث في الاسلام ؛ برزت الطائفتان وتخاصمتا وتصارعتا . وكان يمثل القائلين بالجبر خير تمثيل الجبرية الخالصة من اتباع الجهم بن صفوان ، وأهل السنة من السلفيين نوعاً ما ، ويصور المنادين بحرية الانسان المعتزلة ومن لف لفهم .

ولقد سمي المعتزلة بالقدرية ، يريد خصومهم النيل منهم والحط من قيمتهم ، وذلك لما روي من أحاديث شريفة تذم (القدرية) ذماً شديداً ، من مثل (القدرية مجوس هذه الامة) ، (لعنت القدرية على لسان سبعين نبياً)، (القدرية والمرجئة لعنتا على لسان سبعين نبياً) ..

وكان المعتزلة يتنصلون من هذا الاسم محاولين الصاقه بخصومهم لأنهم- في رأيهم – أولى به منهم ، ما داموا يقولون بالقدر خيره وشره من الله . لكن التسمية لم تلبث أن لبستهم وعرفوا بها على مر العصور .

وكان لموقفهم التحرري من احترام ارادة الانسان ، وتقديس عقله ، ما دفعهم الى ان يتفقوا على ان العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها،مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الاخرة . [1]

(١) الملل والنحل ـ للشهرستاني جـ ١ ص ٦٢

أما المشكلة نفسها فقد كانت عرفت منذ بداية المعتزلة وأثيرت،وان كان الجدل فيها لم يتخذ مظهره الفلسفي الدقيق الا بعــد تطور فكرهم ونضوج آرائهم بعد ذلك.وكانوا في بداية الامر ينظرون اليه ببساطة ووضوح،ويرون في حرية الانسان تبريراً للمسؤولية والمحاسبة. وكان واصل بن عطاء ، زعيمهم الكبير ، مثلاً يقول : « انه لا يجوز ان يريد الله من العباد خلاف ما يأمر ، ويحتم عليهم شيئاً ثم يجازيهم عليــه . فالعبــد هو الفاعــل للخير والشر والايمان والكفر والطاعة والمعصية ، وهو المجازي على فعله . والرب تــعالى أقدره على ذلك كله [1] »

القضية اذن ان المعتزلة جعلوا الحرية الانسانية شرطـاً لتحمل المسئولية وتبرير التكليف والحساب . وبدون هذه الحرية يصبح مــا ذكرنا شيئاً لا معنى له ؛ اذ كيف يجبر الله عباده على فعل قدره هو عليهم ثم يحاسبهم لأنهم فعلوه ؟!

وهذا تساؤل فيه نصيب كبير من الصحة والحق .

وللمعتزلة مباحث لطيفة في معنى الفعل ومدى نصيب الانسان منــه . أعني ما حدود الفعل الانساني ؟.. هل هو مقيد ام مطلق ؟ ..

واختلفوا فيه ، كما اختلفوا في الفعل المتولد وما نتج عن القول بالتولــد، حتى كان يصطدم شيوخهم ببعضهم بعضاً ، ويكفر بعضهم بعضاً في مثل هذه الموضوعات . [2] .

فمعمر بن عباد السلمي مثلاً قال : ليس للانسان فعــل سوى الارادة

---

(١) المصدر السابق - ص ٦٦ .

(٢) من مظاهر الحرية الفردية لدى المعتزلة اهتمامهم بالنقــد الذاتي ، وعدم تقيدهم بتقليد شيوخهم ، ونزوعهم الى تحقيق الآراء وتمحيصها ، وهذا يتضح للمتتبع لآراء علمائهم ومذاهبهم .

مباشرة كانت او توليداً [١] . بينما يوافقه ثمامة بن أشرس النميري في القول بأن لا فعل للانسان الا الارادة ، لكنه يضيف ان ما عداها فهو حدث لا محدث له [٢] . ويرى الجاحظ أيضاً انه ليس للعبد سوى الارادة وتحصل أفعاله منه طباعاً [٣] . هذا بينما اتفق الجبائي وابنه ابو هاشم على القول باثبات الفعل للعبد خلقاً وابداعاً [٤] .

لقد كانت القضية من البساطة بحيث انها لم تكن تحتاج لطويل جدال ؛ الانسان مكلف لأن له عقلاً، فهو حر في تصرفه فيحاسب عليه – وهو يدرك هذا – فيعاقب او يثاب .

حتى اذا ما حاول أهل السنة اتهام المعتزلة بأنهم يجعلون لله شريكاً بقولهم ان الانسان فاعل على الحقيقة ، دفع هؤلاء التهمة وحاولوا قلبها على خصومهم بقولهم : ان فعل العبد عندهم متميز عن فعل الله جل وعز باوصافه وأحكامه . والشركة – هكذا يقولون – تثبت في الجبر الذي لا يحصل فيه تمييز !! (فكأنما هم يرمون الى اثبات أن فعل العبد مستقل عن فعل الله وإذن فلا شركة ، لكن الشركة تأتي من القول بأن افعال العبد رهينة بأفعال الله).

لكن خصوم المعتزلة من الدقماطيين الجزميين كانوا يرون في هذا القول خروجاً عن الدين ونبوءاً عن الصراط القويم ، فيقول أبو مظفر الاسفرايني مستنكراً : ان من افظع ما صنعوه نسبتهم التقدير الى انفسهم لا الى خالقهم [٥]

ويقول البغدادي – وهو من ألد خصومهم – في (الفرق بين الفرق).

---

(١) الملل والنحل ص ٩٩
(٢) الملل ص ١٠٦
(٣) الملل ص ١١٢
(٤) الملل ص ١٢٠
(٥) التبصير في الدين ص ٨٤

« ومنها قولهم جميعاً بأن الله تعالى غير خالق لاكساب الناس ولا لشيء من أعمال الحيوانات ، وقد زعموا أن النـاس هم الذين يقدرون على اكسابهم ، وان ليس لله عز وجـل في اكسابهم ولا في اعمال سائر الحيوانات صنع ولا تقدير . ولاجل هذا القول سماهم المسلمون قدرية[1] » .

والحق ان في هذا الكلام تحريفاً وتجنياً على المعتزلة وارائهم . فالمعتزلة لم يقولوا الا بأن الله خلق الانسان واعطاه حرية التصرف والفعـل . تماماً كما يسمح الملك لعبده او خادمه بالتصرف في قصره ، فإن احسن أثابه وان أساء عاقبه . كذلك هم يفرقون بين الفعل (الانساني) الذي يستحق المدح والذم ، والفعل (الإلهي) الذي لا دخـل للانسان فيه ، كالولادة والموت وغيرهما . ولم يكن – في بعض الأحيان – الفعل الانساني عندهم مطلقـاً ، فقيده النظام بالخاطر ، وهو الداعي او المصلحة او المانع[2] .

ولا نستطيع – من ناحية اخرى – انكار أن بعضهم قد تمادى في القول بأن للانسـان قدرة على الخلق والفعـل ، حتى خلق الأراييح والطعوم ، عن طريق القول بالافعـال المتولدة . لكن مرجع هذا كلـه هو الايمان بالعقل البشري ، والتأكيد على قيمته والمغالاة في احترامه وتقديسه .

وعلى النقيض من المعتزلة وقف اهـل السنة يقولون : ان كل ما جرى على العبـد من المعاصي فهو خلق من الله تعـالى ، وهو عـدل منه سبحانه ومعصية من العبد . وكل ما جرى من العبـد من الطاعات فهو خلق من الله تعالى ، وهو من الله فضل . وهما من العبد طاعة ومعصيـة ومن الله فضـل وعدل[3] .

---

(١) الفرق بين الفرق ص ١١٤ - ١١٥

(٢) ابراهيم بن سيار النظام - آراؤه الكلامية الفلسفية . ص ١٧١ - ١٧٣

(٣) التبصير في الدين ، للاسفرايني ص ٨٦

وبعد ان يورد ابو مظفر الاسفرايني الاحاديث والقصص عن الرسول ﷺ وعن علي وابن عباس (رض) التي تؤيد رأي اهل السنة في الايمان بالقدر خيره وشره من الله ، يشن هجوماً قوياً على المعتزلة الذين يسميهم (القدرية) ذاكراً انهم – رغم هذا – يعدون في فرق الاسلام عدا فرقتين منهم .

ولعل خير تلخيص لرأي اهل السنة هـذه الابيات التي يوردها ابو مظفر الاسفرايني عن الامام الشافعي رضي الله عنه :

مـا شئتَ كان وإن لم اشأ ... وما شئتُ إن لم تشأ لم يكن
خلقت العباد على ما علمت ... ففي العلم يجري الفتى والمسن
على ذا مننت وهذا خذلت ... وهـذا اعنت وذا لم تعن
فهذا سعيد ، وهذا شقي ... وهذا قبيح ، وهذا حسن

ويعلق ابو مظفر بأن قوله « ففي العلم يجري الفتى والمسن » رد على المعتزلة في جميع ما يوردونه من الشبه في التعديل والتجوير [1] .

الحسن والقبح :

لعلنا لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا أن اشهر ما عرف به المعتزلة وتنوقل عنهم ، ورد عليهم فيه ، قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين ، اي ان الشيء او الفعل يحمل صفة الحسن او القبح في ذاته ، ولا يكون موصوفاً بهما لعلة خارجية ، كالامر او النهي .

هم يعتقدون ان الشر موصوف بذلك لأنه شر في نفسه ، ولذا نهى الله عنه في الديانات المنزلة ، والخير خير في نفسه ، ولذلك امر به الله . على العكس مما يقول به اهل السنة من ان الشرع هو الذي بيّن لنا الحسن من القبيح ، او الحلال من الحرام ، بأن امر بفعل الحسن ونهى عن فعل القبيح . ولو اراد ان

---

(١) نفس المصدر ص ٨٨

يجعل الحسن قبيحاً – او العكس – لفعل ، وكان هذا صواباً منه وعدلاً .

فالموقف إذن بين اهل الاعتزال واهل السنة موقف تضاد وصدام . ومن هنا كانت هذه الكتب التي صنفها اهل السنة والاشاعرة ينقضون هـذا المبدأ ويعارضونه ، وتلك التي سطرها المعتزلة يدافعون عنه ويدللون على صحته .

ماذا يرى المعتزلة في التحسين والتقبيح العقليين ؟ .

ولماذا نادوا بهذا الرأي ؟..

انهم نادوا به لايمانهم المطلق بالعقل، وبأنه هو الذي يؤدي الى معرفة الله والى معرفة المحبوب من الأعمال . ويعتقد الدكتور أبو ريدة أن من أكبر العوامل التي دعت المعتزلة الى هذا الرأي بالاضافة الى ايمانهم بسلطان العقل في المعارف والواجبات ، تفرقتهم بين علم السمع وعلم العقل ، وذلك بتأثير الثقافة الفلسفية بالاجمال (١) .

هم قالوا بالحسن والقبح العقليين لأنهم فصلوا بين علم السمع –الذي هو الكتب الالهية المنزلة على الرسل – وبين علم العقل – الذي لا يعتمد على شيء سوى نفسه . ولفرط ثقتهم في هذا العقل أوجبوا عليه معرفة الله سبحانه وتعالى حتى قبل نزول الوحي وبعث الرسل ، بل تمادى ابو الهذيل العلاف فقال ان على المكلف معرفة الله حتى قبل ورود الخاطر .

هم يوجبون معرفة الحسن والقبح بالعقل ، ويوجبون كذلك فعل الحسن واجتناب القبح ايضاً (٢). كان أبو الهذيل مثلاً يقول في المكلف قبل ورود السمع انه يجب عليه ان يعرف الله بالدليل من غير خاطر ، وان قصر في المعرفة استوجب العقوبة ابداً ، ويعلم ايضاً حسن الحسن وقبح القبيح ، فيجب عليه

---

(١) ابراهيم بن سيار النظام . ص ٨٨

(٢) الملل والنحل ص٦٣

(٣) الملل والنحل ص ٦٦

الاقدام على الحسن كالصدق والعدل، والاعراض عن القبيح كالكذب والجور[٣] وهذا لعمري منتهى الثقة في العقل الانساني والاعتداد به ، والتمسك بسلطانه وقوته .

لكن النظام ـ تلميذ أبي الهذيل ـ رغم أنه يوافق استاذه في انه اذا كان المفكر قبل ورود السمع عاقلاً متمكناً من النظر ، يجب عليه تحصيل معرفة الباري تعالى بالنظر والاستدلال، ويوافقه في القول بتحسين العقل وتقبيحه في جميع ما يتصرف فيه من افعاله ؛ الا انه يرى انه لا بد من خاطرين : احدهما يأمر بالاقدام والآخر بالكف ليصح الاختيار [١] .

ويذكر الشهرستاني ان الجعفرين ـ جعفر بن بشر وجعفر بن حرب ـ يقولان ايضاً بالتحسين والتقبيح العقليين ، كذلك يفعل ثمامة بن أشرس ، غير أنه زاد عليهم فقال : من الكفار من لا يعلم خالقه وهو معذور . كما اتفق الجبائي وابنه أبو هاشم على ان المعرفة وشكر المنعم ، ومعرفة الحسن والقبح واجبات عقلية [٢] .

ان المعتزلة يتخذون من التحسين والتقبيح العقليين قانوناً عاماً يطبقونه حتى على الله تعالى نفسه ، بعد ان أوجبوه على الانسان . فان النظام مثلاً يرى أن الله ليس يجتلب المنافع ويدفع المضار ولكن يفعله (العدل) لحسنه وشرفه[٣] . وقد اشتهر عن النظام قوله بأن الله لا يقدر على فعل الظلم لان في هذا انتقاصاً منه تعالى .

بالاختصار أجمعت المعتزلة ـ إلا عباداً ـ على ان الله جعل الايمان حسناً والكفر قبيحاً ، بأن جعل التسمية للإيمان والحكم بأنه حسن ، والتسمية للكفر والحكم بأنه قبيح [٤] .

---

(١) الملل والنحل ص ٨٥
(٢) الملل والنحل ص ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٢٠ جـ ١
(٣) (الانتصار) للخياط ص ٤٢
(٤) مقالات الاسلاميين للأشعري ص ٢٧٣ جـ ١

يقول الشهرستاني مبيناً موقف المعتزلة من مسألة التحسين والتقبيح العقليين : فصار المعتزلة إلى أن العقل يستدل به على حسن الافعال وقبحها ، على معنى أنه يجب على الله الثواب والثناء على الفعل الحسن، ويجب عليه الملام والعقاب على الفعل القبيح . والافعال على صفة نفسية من الحسن والقبح ، وإذا ورد الشرع بها كان مخبراً عنها لا مثبتاً لها » [١] .

وجاء في المواقف « للإيجي » وعند المعتزلة أن تعلق المدح والثواب والذم والعقاب عقلي . قالوا : للفعل جهة محسنة أو مقبحة ، ثم إنها قد تدرك بالضرورة كحسن الصدق النافع وقبح الكذب الضار ، وقد تدرك بالنظر كحسن الصدق الضار وقبح الكذب النافع » [٢] .

اما القاضي عبد الجبار بن أحمد – أحد شيوخ المعتزلة المتأخرين – فإنه يقول عند الكلام في العدل : « إعلم أن الطريق الى معرفة احكام هذه الافعال من وجوب وقبح وغيرهما هو كالطريق الى معرفة غير ذلك . ولا يخلو إما ان يكون ضرورياً أو مكتسباً . والأصل فيه أن أحكام هذه الأفعال لا بد من أن تكون معلومة على طريق الجملة ضرورة ، وهو الموضع الذي نقول ان العلم بأصول المقبحات والواجبات والمحسنات ضروري ، وهو من جملة كمال العقل . ولو لم يكن ذلك معلوماً بالعقل لصار غير معلوم ابداً [٣] .

فكأنما هو يريد القول بأن العقل لا يكمل الا اذا عرف – من تلقاء نفسه – الحسن والقبح ، فإذا لم يعلمه بقي ذلك مجهولاً ابداً .

ثم يضيف : « اعلم ان القبيح ليس بقبيح الا لوقوعه على وجه [٤] اي ان الفعل يحمل صفة القبح – وكذلك الحسن – في نفسه وذاته، وليس هو كذلك لأمر أو نهي جاء به او عنه .

---

(١) نهاية الاقدام للشهرستاني ط جيوم ص ٣٧١

(٢) المواقف ، جـ ٢ ص ٣٩٣

(٣،٤) المجموع من المحيط بالتكليف ، مخطوطة ص ٨٢ جـ ١

خلاصة القول أن المعتزلة أعطوا العقل قيمته الكبرى في معرفة الله قبل ورود السمع، وسلطانه الكامل في معرفة الخير والشر والفساد والصلاح، وقدموه على سواه – حتى على الشرع نفسه – فما موقف معارضيهم في هذا الموضوع؟..

نحن نعلم أن اهل السنة والأشاعرة وقفوا منهم موقفاً متشدداً مستمسكاً بالقرآن والسنة والحديث، نابعــاً من ايمانهم بالقدر خيره وشره من الله، معتمدين على ان الله تعالى لا يعذب من لم يكلفه عن طريق الرسل. معتمـدين على الآية الكريمة: (ومـا كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)[1]. فلننظر إلى آرائهم ونعرضهـــا في إيجاز. واننـا لواجدون في كتاب (نهاية الاقدام) للشهرستاني تلخيصاً طيباً لهذا الموقف.

يقول الشهرستاني: «فمذهب اهل الحق (السنة) أن العقل لا يدل على حسن الشيء وقبحه في حكم التكليف من الله شرعاً، على معنى ان افعــال العباد ليست على صفات نفسية حسناً وقبحاً، بحيث لو اقدم عليهـا مقدم أو أحجم عنهـــا محجم استوجب على الله ثواباً أو عقابــاً، وقد يحسن الشيء شرعـاً ويقبح مثله المساوي له في جميع الصفـات النفسية. **فمعنى الحسن ما ورد الشرع بالثناء على فاعله، ومعنى القبيح ما ورد الشرع بذم فاعله**»[2].

اما من حيث معرفة الله تعـالى فان الشهرستاني يبين موقف الأشعري[3] فيقول انه فرق بين **حصول** معرفة الله تعالى وبين **وجوبها** فان المعارف كلها انما **تحصل بالعقل**، لكنها **تجب بالسمع**.

ويضرب اهل السنة مثلاً: لو قدرنا أن إنساناً قد خلق تام الفطرة كامل العقل دفعة واحدة من غير ان يتخلق بأخـلاق قوم ولا تأدب بآداب الأبوين

(١) سورة الاسراء: آية ١٥

(٢) نهاية الاقدام في علم الكلام. ص ٣٧٠

(٣) يلاحظ ان الاشعري – رغم انقلابه على المعتزلة – يتخذ موقفاً وسطاً في اغلب الاحيان

ولا تزيا بزي الشرع ولا تعلم من معلم ، ثم عرض عليه امران ؛ احدهما أن الاثنين اكثر من الواحد ، والثاني ان الكذب قبيح بمعنى أنه يستحق من الله لوماً عليه ، لم يشك انه لا يتوقف في الاول ويتوقف في الثاني . ومن حكم بان الأمرين سيان بالنسبة الى عقله خرج عن قضايا العقول وعاند عناد الفضول[1] .

ويضيف الشهرستاني معلقاً على موقف المعتزلة : قالوا وقد اخطأت المعتزلة حيث ردوا القبح والحسن الى الصفات الذاتية للأفعال ، وكان من حقهم تقرير ذلك في العلم والجهل ، إذ الأفعال تختلف بالاشخاص والأزمان وسائر الاضافات وليست هي على صفات نفسية لازمة لها لا تفارقها البتة .[2]

فأهل السنة يرون إذن أن تقرير الحسن والقبح خاضع للظروف والبيئة والزمان ، من بعد الشرع . ولا يسلمون بأن كل فعل يحمل قيمته في ذاته – كما يرى المعتزلة .

وأهل السنة يستدلون أيضاً على ان الشرع هو المحسن والمقبح بنسخ الشرائع حتى يتبدل حظر بإباحة وحلال بحرام .

من ناحية اخرى ، ذهب بعض شيوخ المعتزلة الى القول ان كثيراً من الاشياء تجب على العبد من غير أن يكون من الله تعالى فيه أمر ، مثل النظر والاستدلال وشكر المنعم وترك الكفر والكفران . وإن العبد اذا أتى بهذه الأشياء على قضية عقله دون امر ربه سبحانه ، وجب على الله تعالى ان يثيبه [3]

فالمعتزلة اذن يوجبون على الله أن يثيب العبد العارف الصالح لأن هذا

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٧٢

(٢) نفس المصدر ص ٣٧٦ .

(٣) التبصير في الدين ص ٦٣ .

من عدله تعالى . بينما ينكر اهل السنة وأتباعهم هـذا (القانون) ويرون ان الله جل وعلا حر في ان يعاقب أو يثيب – دون ابداء الاسباب .

المعتزلة – على الحقيقة – تمادوا في بعض الاحيان حتى جعلوا من الانسان نداً لله تعالى في الواجبات والحقوق ، وساووا بين العبد وربه ، حتى لم يعد هناك مجال لفضل أو تفضل ، بل هو حق يؤخذ وواجب يؤدى ؟ !!

يقول (الايجي) في (المواقف) :

« إن القبيح – لدى اهل السنة وهو منهم – ما نهى عنه شرعاً ، والحسن بخلافه . ولا حكم للعقل في حسن الاشياء وقبحها ، وليس ذلك عائداً الى امر حقيقي في الفعل يكشف عنه الشرع ، بل الشرع هو المثبت وهو المبين . ولو عكس القضية فحسن ما قبحه وقبح ما حسنه لم يكن ممتنعاً وانقلب الامر . وقالت المعتزلة بل الحاكم بهما العقل ، والفعل حسن او قبيح في نفسه والشرع كاشف ومبين ، وليس له ان يعكس القضية . » (١)

هذان هما موقفا المعتزلة وأهل السنة ، يمنعنا من الاسترسال في سرد تفاصيل الخلاف وحجج كل فريق وبراهينه ضيق المجال ، والاستغناء بما أوردناه عن الشرح والتطويل .

فلننتقل إلى مشكلة اخرى – متصلة بما سبق وبما هو لاحق – وهي قضية :

السمع والعقل :

هذه القضية متصلة تمام الاتصال بفكرة التحسين والتقبيح العقليين ، ومتصلة أيضاً بالتكليف ، ومتصلة ثالثاً بالديانة العقلية التي سنفرد لها قسماً خاصاً من هذا البحث بإذن الله .

أما السمع فمعناه ما جاء عن طريق الرسل والكتب المنزلة من اوامر ونواه تحدد الاحكام وتبين الحلال من الحرام .

---

(١) شرح المواقف ص ٣٩٣ .

وأما العقل فهو ذلك الشيء . الذي أودعه الله تعالى في الانسان وميزه به ورفعه عن سائر الحيوان والجماد ، وصار به مسئولاً ، مختاراً ، محاسباً على ما تقدم يداه .

فهل يستطيع الانسان بعقله هذا أن يستغني عن الرسل والانبياء ليعرف ما يرضى الله وما يغضبه ؟ .. وهل يكفي هذا العقل لارشاد الانسان في طريقه الى العمل للدنيا والآخرة ؟ ..

يقول المعتزلة بثقة مطلقة : نعم .. العقل وحده كاف للإنسان .

فاذا سألناهم : ما بال الرسل يبعثون ، والانبياء بين ظهرانينا من عند الله ؟ ..

قالوا : ان هذه الرسالات ليست سوى ألطاف من عند الله ليخفف بها عن عباده . فالتكاليف كلها ألطاف ، وبعثة الانبياء وشرع الشرائع وتمهيد الاحكام والتنبيه على الطريق الأصوب كلها ألطاف (١) . ولو آمن العبد بلا لطف - أي بلا رسالة - لكان ثوابه اكثر لكثرة مشقته (٢) .

المعتزلة يتفقون على أن اصول المعرفة - ومنها معرفة الله ومعرفة الخير والشر - وشكر المنعم واجبة قبل ورود السمع (٣) (أي الوحي)... لكنهم يختلفون في التفاصيل .

فبينا نرى أبا الهذيل العلاف يوجب على المكلف المعرفة دون قيد او شرط ، نجد النظام يقول انه لا بد من وجود الخاطر الذي يبين له هذه المعرفة . هذا بينما يرى ثمامة بن اشرس أن المعارف كلها ضرورية وان لم يضطر (العبد) الى معرفة الله سبحانه وتعالى فليس هو مأموراً بها وانما خلق للعبرة والسخرة كسائر الحيوان (٤) .

---

(١) الملل والنحل ص ١٢١
(٢) « « ص ١٢٦
(٣) « « ص ٦٣
(٤) « « ص ١٠٦

فالانسان الذي لم يتوصل الى معرفة الله بعقله لا تثريب عليه في رأي ثمامة، وان كان قد انزله الى مرتبة الحيوان الذي خلق للعبرة . والمرجع في قوله هذا الى ان بالعقل تحصل المعرفة ، فكأن من لا يستطيع ان يعرف لا عقل له، فهو والحيوان في مرتبة سواء ! ونفس هذا الرأي يورده الاسفرايني عن ثمامة من ان المعارف لديه ضرورية ، وان من لم يعرف الله سبحانه ضرورة ليس عليه امر ولا نهي، وان الله خلقه للسخرة والاختبار ، لا للتكليف والاختيار (١)

يقول الامام ابو حامد الغزالي – مؤيداً موقف السلف واهل السنة: ندعي انه لو لم يرد الشرع لما كان يجب على العباد معرفة الله تعالى وشكر نعمته – خلافاً للمعتزلة حيث قالوا بأن العقل بمجرده موجب (٢) » .

ولعل هذه النزعة المسيطرة على اتجاه المعتزلة في كل ما تعرضوا له .. هذه النزعة العقلية الحادة التي تكاد تتحول عندهم الى شيء مقدس والتي لاقوا في سبيلها كل عنت ، هي التي دفعت دي بور الى القول :

« الحق ان كثيراً من المعتزلة كانوا يعولون على العقل اكثر مما يعولون على القرآن (٣)

والحق ايضاً انهم كانوا يقدمون العقل على النقل مما دفعهم الى تأويل الآيات القرانية الكريمة التي لا تتفق مع اتجاهاتهم ، حسب آرائهم ومذاهبهم ، كما دفعهم هذا الموقف الى انكار العديد من الاحاديث النبوية التي تتعارض مع العقل وتتنافى . واصطدموا بالمحدثين اصطداماً عنيفاً منذ البداية، واعتبروهم خطراً على الدين ، لأن بعضهم لا يمحص احاديثه ولا ينقدها . وذهبوا الى تكذيب الصحابي عبد الله بن مسعود في الحديث القائل (ان الشقي من شقي في بطن

---

(١) التبصير في الدين ص ٧٤
(٢) الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٨٩
(٣) تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ص ١٠٥ ط ٤

امه) كما لم يقبلوا الكثير من احاديث ابي هريرة الذي اسرف في ايرادها اسرافاً ملحوظاً . وكما يقول احمد امين :

«الحق ان فرقة المعتزلة كانت اجرأ الفرق على تحليل اعمال الصحابة ونقدهم وإصدار الحكم عليهم (١) . وما ذلك الا لان المعتزلة كانوا يحاولون ان ينفوا فكرة التقديس التي تحيط ببعض الاشخاص من الصحابة خصوصاً ، وتحكيم العقل لهم او عليهم (٢) .

لقد رأى المعتزلة ان العقل البشري قد منح من السلطة والسعة ما يمكنه من اقامة البرهان على ما يتعلق بالله. فلا حدود للعقل إلا براهينه ، ولا خطأ ولا زلل متى صح البرهان . فلتستعمل البراهين في ادق الأمور واصعبها وأعقدها ، ففي استطاعة العقل الوصول الى الحق فيها ... وعلى العكس من ذلك الآخرون : رأوا ان العقل اضعف من ذلك ، وانه منح القدرة على أن يدرك البرهان على وجود الله والنبوة عامة ونبوة محمد خاصة ، ولم يمنح القدرة على معرفة كنه الله وصفاته ، فلنؤمن بما جاء به انبياؤه.. ولنقف عند ذلك(٣) .

التكليف :

نستطيع مما تقدم ان نعرف قول المعتزلة في التكليف ، وفي من يجب عليه ومن لا يجب. والحق اننا نكاد نلمح – بصفة اجمالية – انهم يربطون بين الحرية الانسانية والعقل من جهة ، وبين التكليف والمحاسبة من جهة اخرى. فالمكلف عندهم ينبغي ان يكون مزوداً بالعقل اولاً ليدرك مسئوليته ، ثم ان يكون مختاراً حراً في تصرفاته – ان شاء اتبع طريق الهدى . وهو مدرك له فيثاب ، وان شاء اتبع هواه – وهو مدرك له – فيعاقب .

---

(١) فجر الاسلام ص ٢٩٤

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) ضحى الاسلام ج ٣ – ص ٣٩

أمـا القول بأن كل شيء مقدر من الله منذ الأزل فانه ينفي - في رأيهم المسئولية الانسانية ، وليس الله ظالماً حتى يفعل هذا . بل إن تمـــام العدل الألهي ان يعطي حرية في الفعل ، ليحاسب عن طريقها عباده . فإن الاجسام - كما يرى الاسكافي - تدل بانفسها على أن الله ليس بظالم[1] ومن العدل الا يحاسب على فعل قدره منذ الأزل .

عند ابي الهذيل مثلاً ان العبد مكلف بايجاب الفطرة - بالطبيعة والجبلة - والعقل قبـــل ورود الوحي ، بان يعرف الله ويقدم على الحسن كالصدق، ويعرض عن القبيح كالكذب والجور[2].

فكأن التكليف مرتبط بالعقل . ما دام الله سبحانه وتعالى قد أعطانا عقلاً نميّز به ، فهذا وحده يكفي لتكليفنا ومسئوليتنا. ونحن نجد ان ابراهيم النظام يرى نفس رأي ابي الهذيل ، لكن ثمامـة بن اشرس يخالفهما فيقول ، ان الانسان الذي لا يتوصـــل إلى معرفة الله ومعرفة الحسن والقبيح ، رغم وجود عقله ، ليس عليـه امر ولا نهي ، لأنه مخـــلوق للعبرة والسخرة ، فالتكليف مرفوع عنه إذن . ويرى نفس رأيه الجاحظية (٣) .

الصلاح والاصلح :

من دأب العقل البشري - في كل زمان ومكان - أن يبحث عن العلـل والاسباب في كل ما يرى من ظواهر وافعال . لكن هنـاك طوائف من البشر تكتفي بمجرد التسليم والايمان بما ترى دون تنقيب او رغبـة في الكشف عن المجهول . ويأبى المعتزلة - وقد اتخذوا من العقل قائداً لهم ومرشداً - الا أن يعللوا أفعال الله وخلقه . فيقولون مثلاً انه خلق هذا العالم لغرض وغاية او لحكمة ، فان العمل بدون غرض وغاية عبث وسفه تعالى الله عن ذلك علواً

(١) (الانتصار) للخياط ص ٩٠
(٢) تاريخ الفلسفة في الاسلام ص ١٠٩
(٣) التبصير في الدين - ص ٧٤

كبيراً ، ولما كان الله عادلاً غير ظالم ، وكان حكيماً ، وكان جواداً ، فانه خلق كل شيء لصلاح عباده وخيرهم .

والحكيم من يفعل احد امرين ؛ اما ان ينتفع ، او ينفع غيره . ولما تقدس الرب تعالى عن الانتفاع تعيّن انه انما يفعل لينفع غيره ، فلا يخلو فعل من افعاله من صلاح (١) .

هذا هو الاساس الذي بنى عليه المعتزلة نظريتهم المشهورة في الصلاح والاصلح ، وفي ان كل موجود كامل ، وان كل خلق وفعل لله متقن .

الصحة ، والغنى ، والقوة ، والجنة صلاح لمن اعطوها . والمرض ، والفقر ، والضعف ، والنار ، صلاح لمن اعطوها . لان الاخيرة لو ردّ اصحابها لفعلوا اسوأ مما استحقوا عليه العقاب – اذا اعتبرناها عقاباً – فيزداد عقابهم ، وليس في هذا صلاح لهم (٢) .

ثم : هل تجب على الله رعاية الاصلح ؟ ..

قال بعضهم ؛ تجب كرعاية الصلاح ، وقال بعضهم ، لا تجب ، اذ الاصلح لا نهاية له ، فلا اصلح الا وفوقه ما هو اصلح منه (٣) .

لكن قسماً منهم يرى انه ليس هناك اصلح مما هو كائن ، اي (ليس في الامكان ابدع مما كان) . فالله الحكيم المتقن لا يخلق الا الاصلح . ونشأت عن هذه المواقف تفريعات كثيرة – سواء بين شيوخ المعتزلة ، او بينهم وبين الفرق الاخرى .

ارجاع مقالات المعتزلة الى اصولهم الخمسة :

من الواضح القارىء في تاريخ ومقالات المعتزلة ، أن هذه المقالات تستند

---

(١) نهاية الاقدام ص ٣٩٧ – ٣٩٨

(٢) من مشكلة الصلاح والاصلح ينشأ انقلاب الاشعري ضد المعتزلة ، وسيأتي تفصيله فيما بعد.

(٣) نهاية الاقدام ص ٣٩٨

الى مبادئهم – أو أصولهم – الخمسة الأولى التي مر ذكرها. وهي : التوحيد، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

فعن أصل التوحيد كانت مقالاتهم عن التنزيه المطلق، ونفي التشبيه، حتى وصلوا الى نفي الرؤية الحسية ونفي الصفات الزائدة على الذات المشابهة لصفات الانسان ، والقول بأن القرآن مخلوق، خشية أن يشارك الله في القدم . وكانت هذه اكبر المسائل في هذا الميدان .

وعن اصل العدل رأوا أن الله عادل فلا يكلف نفساً إلا وسعها، ولا يعذب الطفل ظلماً ، ولا يقدر شيئاً ثم يعاقب على فعله .

وعن اصل الوعد والوعيد نشأت الفكرة القائلة بأن الله تعالى لا بد يثيب المحسنين ويعاقب المذنبين ، ولا مناص من تنفيذ وعده ووعيده .

وعن اصل المنزلة بين المنزلتين ظهر القول في صاحب الكبيرة ، وفي معنى الايمان والكفر ، واتخذ المعتزلة موقفهم المستقل الخاص في هذا المجال .

وأخيراً كان اصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي حدد وجهة المعتزلة ومحاربتهم للزيغ والالحاد ، ووقوفهم في وجه الطوائف المنحرفة سواء كان هذا الانحراف عن حسن نيـة أو سوء قصد . ولشيوخهم – من امثال عمرو بن عبيد – مواقف مشهورة تتسم بالقوة في الحق ، والصلابة في الدين ، والدفاع عن كل ما هو فاضل وخير وحسن .

الدّيانة العقليّة

الدّيانة العقليّة

التكليف بدون وحي ـ النبوة والأنبياء ـ المعجزات

يتبين لنا من خلال ما سبق بجلاء مدى تأكيد المعتزلة لأهمية العقل وسلطانه والاعتزاز بـه كمصدر أول للمعرفة – سواء المعرفة الميتافيزيقية المتعلقة بالله سبحانه وتعالى ، وبالأحكام على الأفعال من الوجهـة الدينية ، أو المعرفة الفيزيقية الطبيعية .. معرفة المحسوسات عن طريق التجربـة والشك ، ولهذا موضع بحث آخر إن شاء الله .

التكليف بدون وحي :

قلنا إن شيوخ المعتزلة جميعاً تقريباً جعلوا معرفة الله،والمحسنات والمقبحات، واجبات عقلية . أي ان على العقل أن يصل الى هذه المعرفة ويحصلها ضرورة ويتمادى ابو الهذيل حتى يجعل العقاب الأبدي جزاء من لا يعمل الحسن ويترك القبيح بحكم عقله ، أي انه يكلف معرفة الخير والشر ، والعمل بمقتضى هـذه المعرفة – حتى وان لم يرسل له الله رسولاً بشرع يبين له الحـلال من الحرام والحسن من القبيح .

وكنتيجة طبيعية لهذا الموقف العقلي الحاد، وللتطور الذي حدث لافكار المعتزلة ، وغلوهم في الأخذ بأحكام العقل ، ظهر هناك اتجـاه الى ما نسميه (الديانة العقلية) أو (الديانة الطبيعية) أو هو بحسب تعبـير الشهرستاني : « الشريعة العقلية » التي تعتمد على العقل وحده دون حاجة الى رسول أو نبي،

وهو اتجاه يظهر لنا مدى الامعان في تقديس العقل، والاستغناء به عن سواه.

ونحن نرى لهذا الاتجـاه شبيهاً له في العصر الحديث – وفي القرن السابع عشر على وجه التحديد – لدى مدرسة (افلاطونيي كمبردج – Cambridge Platonists وسنفرد لهذا الموضوع جزءاً خاصاً من هذا البحث ، نقارن فيه بين الاتجاهين ، والديانتين . إن شاء الله .

لكن قبل الاسترسال في هذا الموضوع ، نحب ان نلقي ضوءاً – في شيء من الايجـــاز – على موقف المعتزلة من الأنبياء والنبوات . ثم موقفهم من المعجزات التي غالباً ما تصاحب الرسل كدليل على صدقهم وانهم جاءوا مبعوثين من عند الله جل شأنه . وكذلك موقفهم من كرامات الأولياء ، والخرافات والأساطير ، مع الاشارة الى اتجاههم التجريبي في ميدان العلم ، واستخدامهم الشك المنهجي فيه .

النبوة والانبياء :

خاض المعتزلة – فيما خاضوا – في موضوع النبوة والأنبياء . هـل النبوة جائزة ، ام واجبة ، ام مستحيلة ؟ وما تبرير ارسال الرسل ؟ وكيف نوفق بين الشرائع التي يأتون بها وبين العقل ؟ وهل الأنبياء معصومون عن الخطأ أم غير معصومين ؟ .. الى آخر هذه الأسئلة وامثالها .

وكان ذلك نتيجة طبيعية لبحث المعتزلة في المعجزات ، ومدى صحتها، أو صحة حدوثها ، وضرورتها لتصديق الرسل .

إذ أن اغلب شيوخ المعتزلة وقفوا موقف المتشكك في وقوع مثـــل هذه المعجزات الخارقة للعادة والمنسوبة للنبي الكريم (ص) مثل انشقاق القمر ونبع الماء من بين انامله وكلام الحصى في كفه الـــخ ... هم لم يشكوا في وقوع المعجزات ارتياباً في قدرة الله على إحداثها، وانما اكتفاء باستعمال العقل في تصديق (الرسول) أو تكذيبه . فإن من الواضح أن الله قادر على فعـــل

الخارق للعادة واحداثه – لكن اليس في القرآن وحـده – كشيء معجز لم تكن للبشر القدرة على أن يأتي بمثله، سواء من حيث اللغة والصياغة والاسلوب أو من حيث الإخبار عن حوادث مقبلة والتنبؤ بالغيب – أليس فيه الكفاية معجزة النبي (ص) ؟ ...

ثم ألا ينبغي أن نعطي العقل فرصته في اكتشاف الحق من الباطل، باستعماله في تقرير صدق الرسالة من عدمه ، ودون اللجوء الى خوارق الطبيعة كبراهين لا تقبل النقض ؟ ..

من هنا كان تشكك المعتزلة في المعجزات ، بل وإنكار بعضهم لها (١) .

ولقد ربط مؤرخو الملل والفرق – واغلبهم من الاشاعرة – بين موقف

---

(١) يبدو ان اشهر من انكر المعجزات ـ ولعله الوحيد الذي اعلن رأيه صراحة وتمسك به ـ هو ابراهيم بن سيار النظام ، ورغم ان عدداً من شيوخ المعتزلة وافق النظام في رأيه وما ذهب اليه الا ان أحداً لم يجهر به جهره هو به .

غير أن تطوراً كبيراً – بل تغييراً شاملاً – في موقف المعتزلة حدث بعد ذلك على يد القاضي عبدالجبار بن أحمد . فقد الف هذا الزعيم المعتزلي كتاباً كبيراً بعنوان (تثبيت دلائل نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » على اسس اربعة : ١ ـ أن الرسول جاء باخبار الامم السابقة ـ٢ ـ وجاء باخبـار العقائد والنحل السابقة . ٣ ـ وانه اخبر بالغيوب « وايراد هذه الأمور بهذه الدقة وحصول مـا أخبر به الرسول من كثير من الغيوب لا يمكن أن يكون من انسان امي الا اذا كان يرد عليه وحي » ٤ ـ ثم ايراد المعجزات ، وخوارق القوانين الطبيعية ، وفي هذا كان يرد على النظام ، فاثبت انشقاق القمر ، واطعام العدد الكثير بالطعام القليل ، وحنين الجذع ، وكلام الحصا ، ونبع الماء من انامل الرسول .. وكل ما ورد عن طريق الأخبار الصحيحة .

ولعل هذا التغيير في موقف المعتزلة من مسألة المعجزات كان لأسباب عديدة ، اهمها في رأيي أن المسلمين لم يكونوا ليقبلوا ابداً الطعن في معجزات الرسول ، وخاصة المعـارضين للمعتزلة الذين اتخذوا ماذهبوا اليه سلاحا قوياً شهروه في وجوههم، كذلك يجوز ان تكون القاضي عبدالجبار فقيهاً أثراً في هذا التعديل ، كما لا ننس انه كان في بادىء امره اشعرياً ثم صار معتزليا ولا بد انه نادى بهذا التعديل في موقف المعتزلة باثر من نشاته الأولى .

المعتزلة من جهة والبراهمة (١) من جهة اخرى، في مسألة النبوات محاولة منهم تشويه صورة خصومهم لدى العامة من المسلمين .

فقالوا بانهم يقلدون البراهمة في عـــدم ضرورة إرسال الرسل وكفاية العقول (٢) كما يفعل الباقلاني المعروف بتعصبه الشديد ضد المعتزلة .

لكن الغزالي في كتابه (الاقتصاد في الاعتقـــاد) ومحمد بن عبد الكريم الشهرستاني في كتابه (نهاية الاقدام في علم الكلام) يوردان فارقاً كبيراً بل تضاداً تاماً بين الطائفتين .

فبينما يقول البراهمة باستحالة النبوات عقلاً – إذ النبوة عندهم إمـا مخالفة للعقل فتنبذ وتطرح ، وإما موافقة له فلا حاجة لها – يرى المعتزلة وجوب ارسال الرسل وظهور النبوات ، بنـاء على نظريتهم في اللطف ، وأن الله لا يفعل بعباده الا الأصلح . اذ أن من اللطف ان ترشد الجاهل وتبين للغافل وتسهل للمستصعب . وهذا ما يفعل الله سبحانه وتعالى ، ولذا وجب ارسال الرسل (٣) فإن التكاليف كلها ألطاف ، وبعثة الانبياء وشرع الشرائع وتمهيد الاحكام والتنبيه على الطريق الأصوب كلها ألطاف (٤) .

بل يصل الأمر الى ان يرد المعتزلة على البراهمة – رداً عقليـاً – كعادتهم فيقول القاضي عبد الجبار بن احمد : « كل ما على المكلف فعله او تركه قـد ركبه الله جملة في العقول . وانما لا يكون في قوة العقول التنبيه على تفاصيلها . وهذا فصل اذا عرفته تبينت أن كل التكاليف مطابقة للعقول ، وكذلك

---

(١) طائفة هندية تنكر امكان ارسال الرسل .

(٢) « التمهيد » ص ١٢١

(٣) نهاية الاقدام ص ٤٩٥

(٤) الملل والنحل ص ١٢١ . ويعرفون اللطف بانه ما به يقرب العبدمن الطاعة ويبعدعن المعصية ، اوجبه الله على نفسه تفضلا ايجاب جود لا ايجاب تكليف .

احوال المعاملات وما يتصل بالنفع والضر ، وظهر لك بطلان مذهب البراهمة في ادعائهم أن الشرائع وقعت مخالفة للعقول . »[1]

لكن أهل السنة يعتقدون أن النبوات جائزة وليست مستحيلة أو واجبة وهذا موقف وسط فيه الخيار لله سبحانه ليتصرف كيف يشاء بدون احالة أو ايجاب .

كذلك يربط المعتزلة بين الاختيار الانساني من جهة وبين ارسال الرسل من جهة اخرى ، ويبنون على موقفهم المعادي للجبر والمؤيد لشعور الانسان بحريته ومسئوليته ، نظرتهم الى الاختيار كمبرر لهذه الرسالات .

فعند (الفوطي) انه لو علم الله وقدر كل شيء لما كان هناك ضرورة لإرسال الرسل . إذ كيف يقدر شيئاً ، ثم يبعث بمن يُنبيء ويُعلم دون فائدة ولا جدوى ، ما دام كل شيء مسطراً منذ الأزل ؟ .. ففي الرسالات إذن تبرير للتكليف . وفي الاختيار الانساني تبرير للرسالات .

والحق أن المعتزلة – رغم إيمانهم بالنبوات – لا يغلون في تقديس أصحابها وتنزيههم عن الأخطاء.فهم بشر مثلنا يخطئون ويزلون–وان كانوا معصومين من الخطأ في تبليغ الرسالات .

فقد أخطأ آدم عليه السلام فأخرج من الجنة ، وأخطأ موسى عليه السلام بقتل رجل ، وعبس محمد ﷺ في وجه رجل فقير فعاتبه ربه في سورة «عبس» (عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ؟ ..)[2] . لكن ذنوبهم جميعها مغفورة ، فقد غفر الله لرسله ما تقدم من ذنبهم وما تأخر[3] .

---

(١) المجموع من المحيط بالتكليف ص١٣

(٢) سورة : عبس آية ١ - ٣ .

(٣) الانتصار ص ٩٤ - ٩٥ / والغريب ان الشهرستاني يذكر في (الملل والنحل) ان المعتزلة يبالغون في عصمة الانبياء عن الذنوب صغائرها وكبائرها . ص ١٣٠ جـ ١ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فـإن شيوخ المعتزلة الذين تمسكوا بكفاية العقول . وأن العقل وحده يقوم مقام الأنبياء ، من أمثـال ابي علي الجبائي وابنه أبي هاشم .. هؤلاء الشيوخ كانوا يرون أن من مهمة الأنبيـاء الكبرى تحديد الاحكام والعبادات ، من مثل تحديد موعد الصوم والصلاة والزكاة وكيفيتها ، وإعدادها وتوقيتها، إلى آخر التشريعـات المعروفة في العبادات. إذ أنه ليس من مهمة العقل معرفة هذه الاشياء التفصيلية ، فيكون عمل النبي تبيانها وشرحها لتطبيقها .

آل البيت والصحابة :

كذلك كان المعتزلة – الاوائل منهم خاصة – لا يحملون احتراماً زائـداً لآ ل البيت والصحابة رضي الله عنهم . لا عن نفور وسخرية ، ولكن اتباعاً للعقل، واحتراماً لمكانته، وبعداً عن التقليد الأعمى في محبة آ ل النبي وصحبه. فقد وقف المعتزلة موقف النقد من بعض الصحابة بل والتجريح والتكذيب . فنقدوا عمر بن الخطاب بل وعابوه ، ونقدوا عثمان في بعض تصرفاتـه ، وأكذبوا عبدالله بن مسعود وأبا هريرة في كثير من الأحاديث التي أوردها ولا تتفق مع العقل السليم .

وكان نقدهم للصحابة ذا فائدة عظمى في تاريخ الإسلام، إذ أبعد عنهم تلك الهالة التي أحاطهم بهـا عامة المسلمين ، حتى كادوا يبلغون بهم مرتبة النبوة والألوهية . فخفف موقف المعتزلة من هذه الغلواء ، وأبقى الصحابة – رضوان الله عليهم – حيث أرادهم الله بشراً ، يخطئون ويصيبون .

أما بالنسبة لآ ل البيت فقـد اتخذ المعتزلة موقف التشيع المعتدل المتعقل ، الذي يرى في آ ل أبي طالب ذوي حق يجب ان يُناصَروا ، وليسوا أنصاف آ لهة يعبدون ، وينعون على الذين يحاولون تأليه آ ل البيت ورفعهم فوق منزلة البشر بأنهم إنما يضرونهم بعملهم هذا ولا ينفعونهم. فلو أريد لآ ل البيت الفوز لوجب عليهم التعلم وسماع العلماء وحضور مجالسهم وأن يحثوا على طلب

العلم ومجالسة أهله ، والاختلاف اليهم ودرس كتبهم حتى يكونوا في معرفة ما يريدونه منهم ويرشحونه لهم كأعدائهم [١] . ولا ينبغي أن يقصوا عليهم أخباراً تلهيهم عن العمل والعلم ، أو يوهمهم بأن المعاصي لا تضرهم ، وأن الواحد منهم يشفع في من أراد أن يشفع فيه !! ذلك لأن الاقتصاد في التشيع – كما يرى الخياط – حق وهو وضع آل البيت حيث وضعهم الله (٢).

وفي هذا الموقف الذي اتخذه الجاحظ وغيره من أئمة المعتزلة نرى التحرر الكامل من التقليد والتبعية واضحاً ، وإعمال العقل . بل هذا (عين العقل) بالنسبة لموضوع من اخطر الموضوعات واكثرها حساسية من الناحيتين الدينية والسياسية .

المعجزات ، والكرامات والخرافات :

تظهر السمة العقلية للفكر المعتزلي في مجالات كثيرة ، وهي تتضح ايضاً في مجال الحديث عن المعجزات والآيات التي يأتي بها الانبياء ، كدليل على صدقهم.

ومع أن المعتزلة لم ينكروا المعجزات جملة ، إلا أن بوادر شك في المعجزات التي لم تجتمع لها قرائن كافية ترجحها وتثبت صحة حدوثها ، تبين في ثنايا الحديث حول هذا الموضوع .

فإننا نرى ابراهيم النظام مثلا يكذب رواية ابن مسعود عن انشقاق القمر ، ويحتج بأن القمر لا يمكن أن ينشق لابن مسعود وحده ، وإلا فلم لم يره كل العالمين ؟!

وهذا تساؤل معقول. وهو يفسر الآية (اقتربت الساعة وانشق القمر [٣] بأنها إنذار وتنبيه بأن القمر سينشق في المستقبل وليس في الماضي

---

(١) الانتصار ص ١٥٤ .
(٢) نفس المصدر ص ١٥٦ .
(٣) سورة : القمر آية : ١

كذلك شك بعضهم في كلام الحصا ونبع المـاء من بين أصابع النبي ﷺ حيث إن هذه الخوارق لم تثبت ثبوتاً قطعياً [1] .

أما عن كرامات الأولياء ، فقد انكرها المعتزلة إنكاراً تاماً – كما يروي البغدادي في (الفرق بين الفرق) – ولم يسلموا بها .

وأغلب الظن عندي أن المعتزلة كانوا لا يصدقون بما يروى عن معجزات الأنبياء ايضاً – سياقاً مع تحكيمهم للعقل وتمسكهم به – وإن منعهم من إظهار آرائهم الصريحة خوف من العامة ، ومن الخوض في هـــذا الموضوع الشائك الخطير . إذ لا ريب أن العامة يربطون دائماً بين الكفر وبين إنكار المعجزات والخوارق . وذلك لأن إيمانهم يقوم على جانب كبير من الحسية ، وليس إيماناً عقلياً مما يتمتع به الخاصة فحسب .

أما الخرافات السارية بين الناس فإن المعتزلة لم يتورعوا عن الجهر بالسخرية منها وتسفيه اصحابها والهزء بهم . ونحن واجدون في الجاحظ أكبر ممثل لهذه النزعة ، خاصة في كتاب (الحيوان) . وكان حرياً بذوي النزعة العقلية أن يهزأوا ممن يقولون بزواج البشر من السعالي ، وبالثعبان ذي الرأسين ، وبغيرها من الخرافات .

فإذا ما رُمي أحـدهم بتأكيدها ، فإن أصحابه سرعان ما يهبون للدفاع عنه ونفي هذه التهمة الباطلة .

نقرأ في (الانتصار) مثلاً :

« ثم إن صاحب الكتاب – ابن الروندي – خبر بأخبار كأنها من خرافات النساء والصبيان ... ثم ذكر التصديق بالنجوم فرمى به أبا مجالد ، وما رأيت أحداً كان أغلظ على من صدق بها منه ، ولا أشد إقداماً على من فعله منه . ولا رأيت أحداً أشد تصديقاً من هذا الماجن لها . فعكس القصة وأضاف إلى أبي

(١) ارجع لكتاب الدكتور ابي ريدة : (ابراهيم بن سيار النظام) ص ١٦٥ – ١٦٦ .

بجالد ما قد عرف هو الخبيث به »[1] .

أمـــا التحرر من التقليد والمتابعة ، والبحث عن الحقيقة بأساليب الشك المنهجي ، والتدقيق العلمي المبني على التجربة المحسوسة ، فإن هذا ما اشتهر به المعتزلة وشيوخهم ، من أمثـال النظام والجاحظ ، وتروى عن (تجاربهم) العلمية أقاصيص كثيرة تدل على اهتمامهم بالواقع العملي وعـدم انسياقهم وراء الاعتقادات التي لا تثبت التجربة الحسية صحتها. وليس هذا محل الإطناب في هذا المجال . فلنكتف بالاشارة العابرة .

الديانة العقلية :

رأينا مما تقدم مدى طغيان الاتجاه إلى العقل والاعتراف بسلطانه لدى الغالبية العظمى من شيوخ المعتزلة . ونقول (طغيان) قاصدين ما تحمله هذه الكلمة من معنى التسلط والسيطرة المطلقة على جوانب التفكير المعتزلي ومناحيه .

ذلك أن المعتزلة تمادوا في هذا السبيل حتى كاد بعضهم ينكر ما عداه من أمور لا تقع تحت طائلة العقل. فإذا ماتعارض العقل مع الدين رجحوا الاول على الثاني بتأويل أو بغير تأويل . المهم أن العقل هو المسيطر وهو السيد في جميع الحالات .

وإذا كان هل السنة - والاشاعرة من بعد - لم ينكروا أهمية العقل ودوره الرئيسي الكبير ، لكنهم جعلوه خاضعاً للشرع ، وموقوفاً على خدمة الدين، بأن صيروه وسيلة للفهم والاستدلال والبرهنة على ما جاء به الوحي ، فإن المعتزلة قلبوا الآية ، وجعلوا من الدين خادماً للعقـل ومؤيداً لأحكامه . فاذا ما تصادم الطرفان غلبوا العقل ونصروه .

القضية إذن أصبحت قضية صراع بين الجانبين، يقف فيها كل فريق موقفاً يناقض الآخر ويخالفه، ومن هنا كان هذا النزاع الحاد العنيف، وتبادل الاتهام

---

(١) الانتصار . ص ١٠٣

بالكفر والزندقة والمروق من الدين ، والبعد عن روح الإسلام . ومن هنا كان تمادي كل فريق في التعصب لمذهبه والانحياز الكامل له .

أهل السنة والسلفيون عامة اشتدوا في الحرب على العقل ، ورفضوا التسليم بأحكامه إلا خاضعة للدين والشرع ، والقرآن والسنة .

وأهل الاعتزال تمادوا في تمجيد العقل وتسويده، حتى وصلوا آخر المطاف. وكانت « الديانة العقلية » أو « الطبيعية » هي آخر المطاف .

فما هي هذه الديانة ؟ ..

الحق أن بوادرها كانت قد ظهرت متناثرة هنا وهناك في آراء شيوخ المعتزلة من الطبقة الثانية والثالثة من أمثال أبي الهذيل والنظام والجاحظ ، في ثنايا حديثهم عن المعرفة الضرورية ، والتحسين والتقبيح العقليين ، والتكليف. لكنها برزت تماماً على يد رجال المرحلة الرابعة والاخيرة (١) وخاصة عند أبي علي الجبائي وابنه ابي هاشم .

ويحسن بنا أن نبادر إلى توضيح المقصود بالديانة العقلية قبل أن يلتبس الأمر ، فنقول : إنها ليست ديانة بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، وما تحتوي عليه من تشريعات وطقوس وشعائر وعبادات ، ولم يصل الأمر إلى اعلانها ديناً ورسالة في يوم من الأيام على يد المعتزلة —وإن كانت قد ظهرت في بداية القرن السابع عشر على يد جماعة من المفكرين الانجليز سيأتي ذكرهم — ولكنها اتجاه عقلي أشبه بالاعتقاد في إله خالق عن طريق النظر ، دون الاستعانة — كما يحدث عادة — برسالة ووحي منزل .

ولقد سبق أن رأينا — خلال دراستنا الماضية— كيف نشأ القول بالتكليف من غير وحي يوحى ، وكيف أوجب بعض شيوخ المعتزلة على المفكر العاقل النظر ومعرفة الله تعالى بل ومعرفة صفاته ، وأوجبوا عليه فعل الحسن وترك

---

(١) المقصود قبل انفصال الأشعري .

القبيح ، عقلاً بدون امر أو نهي . ثم رأينا كيف كان أبو الهذيل العلاف مثلاً يرى أن الله سيعاقب المفكر الذي لا يأتي بما ذكرناه ويخلده من النار .. إلخ . من مجموع هذه الآراء المعتمدة على العقل وحده . ومن التدرج إلى القول بقصر عمل الرسول على تحديد الأحكام وتبيين المعارف التي لا يبلغها العقل دون معونة كالعبادات ونحوها . ومن القول بضرورة معرفة الله والخير والشر وغير ذلك من أمور عقلية صرفة . من كل هذا تتكون الديانة العقلية « او العقيدة الطبيعية » .

يقول الشهرستاني عند حديثه عن أبي علي الجبائي وابنه أبي هاشم ، بعد أن بين آراءهما في مختلف الموضوعات :

واتفقا على ان المعرفة ، وشكر المنعم ، ومعرفة الحسن والقبح واجبات عقلية ..

واثبتا شريعة عقلية ، وردا الشريعة النبوية الى مقدرات الاحكام ومؤقتات الطاعات التي لا يتطرق اليها عقل ولا يهتدي اليها فكر ...

والايمان عندهما اسم مدح، وهو عبارة عن خصال الخير التي اذا اجتمعت في شخص سمي (مؤمناً) [1] .

من هنا نرى كيف تدرجت النزعة العقلية لدى المعتزلة وتطورت ، حتى أصبحوا لا يرون محيصاً من احتضانها تماماً ، والمناداة بسيادة العقل حتى في أخص الخصائص الدينية وهو الإيمان ، فيتحول عندهم إلى اسم مدح نتيجة فعل الخير بلا قيد ولا شرط .

وهذا لعمرى منتهى الإفراط في الاعتماد على العقل البشري .

نادى الجبائيان إذن بالشريعة العقلية وأثبتاها ، أي أنهما اكتفيا بها كمصدر

---

(١) الملل والنحل ص ١٢٠ جـ ١

للمعرفة والحكم . وبقي عليهما أن يقررا مصير الشريعة النبوية ومدى الحاجة إليها . فقالا إن مردها إلى مقدرات الأحكام – أي تقريرها كالصلاة والصوم ونحوهما – ومؤقتات الطاعات – أي توقيت هذه العبادات وطريقة أدائها .

إننا وإن كنا قد وجدنا ظهور الشريعة العقلية هذه كنتيجة حتمية لتطور النزعة العقلية عند المعتزلة ، إلا ان « دي بور » – كعادة المستشرقين دائماً– يضيف عاملاً آخر إلى هذا الظهور ، فيقول :

« إن المعتزلة نظروا في الاديان الثلاثة السماوية يقارنون بعضها ببعض ، بل يقارنون هذه الاديان بالتعاليم الدينية عند الفرس والهنود ، وبالآراء الفلسفية أيضاً ، فتوصلوا بذلك الى شريعة فطرية عقلية توفق بين الآراء المتخالفة ، وهذه الشريعة تقوم على أن في الانسان علماً فطرياً يؤدي بالضرورة الى معرفة إله واحد خالق حكيم ، وهب الانسان عقلاً به يعرفه وبه يميز الخير من الشر . ويقابل هذه الديانة الطبيعية او العقلية المعارف التي ينزل بها الوحي ، وهي مستفادة من مصدر خارج عن فطرة الانسان »[1] .

كأن (دي بور) يوشك ان يقول بأن هذه الشريعة العقلية التي اثبتها المعتزلة ليست سوى محاولة لتوحيد الاديان المتضاربة المختلفة ، او هي خلاصة أهداف الاديان من جهة ثانية ، او هي هروب من جميع الديانات والعقائد الى عقيدة بسيطة سهلة نابعة من ذات الانسان وحده دون مؤثر خارجي يكون تفسيره مدعاة للشقاق والخلاف . وهذا تفسير بعيد الاحتمال . فوحدة الاديان – رغم ظهورها فيما بعد لدى متصوفة المسلمين كمحيي الدين بن عربي – لم تخطر للمعتزلة على بال . إذ هم مسلمون متعصبون للاسلام ، ممعنون في التعصب مدافعون عنه ، مؤمنون بما جاء في القرآن الحكيم وبما انزل على الرسول الكريم . وانما بدت هذه الديانة العقلية – كما قلت – نتيجة للتيار العقلي

---

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام . ص ١٠٥ والهامش .

المسيطر على تفكيرهم وآرائهم ونظرياتهم ، ولثقتهم المطلقة بالعقل وقدراته وسلطانه ، وكافتراض لما ينبغي ان يكون عليه الحال لو لم يكن هنـــاك وحي من الله .

بين المعتزلة وافلاطوني كمبردج :

إن الحديث عن الديانة العقليـــة يذكرنا بما ظهر في منتصف وأواخر القرن السابع عشر في انجلترا ـ وبالتحديد في جامعة كمبردج ـ من دعوة الى ديانـــة طبيعية فطرية تشبه الى حد كبير الديانة التي تبناها المعتزلة ، وتتفق معهـــا في كثير من الآراء خاصة مسائـــل الحسن والقبح ، او الخير والشر العقليين ، وغيرهما من المسائل اللاهوتية الفلسفية . فهل كان افلاطونيو كمبردج متأثرين ـ على نحو ما ـ بآراء المعتزلة ؟ ... هذا ما لا نعرفه ولم يتحقق بعـد . فعلى الرغم من وضوح تأثر الفلاسفة والعلماء الغربيين بالفلسفة الاسلامية [1] الا ان الستار لم يزح بعد عن علاقة افلاطونيي كمبردج بالمعتزلة.

من هم افلاطونيو كمبردج :

هم جماعة من فلاسفة الانجليز اتخذ اغلبهم « كمبردج » مقراً لهم ، ظهروا في اواسط واواخر القرن السابع عشر الميلادي ، وكانت تغلب عليهم النزعة التطهيرية الميالة الى التصوف ، ولا يحفلون كثيراً بالطقوس والشعـائر الدينية . من اشهرهم رالف كدوورث ، هنري مور ، رتشارد كمبرلاند، جون سمث وبنيامين وتشكوت .

كانت بحوثهم في الفلسفة والتصوف ذات صبغة متعمقة وان كانت خليطـاً

(١) كلنا يعرف تأثير ابن رشد وابن سينا في هذا المجال . وتكشف الدراسات الحديثة عن نواحي اتفاق غريب بين آراء ديكارت والغزالي . كذلك ظهر اثر المسلمين في الاتجاه التجريبي الذي كان بداية النهضة الاوروبية الحديثة .

يشبهون به (اخوان الصفا) في الاسلام ، متأثرين في آرائهم بالافلاطونيين الجدد وبآراء افلوطين على وجه الخصوص .

اما الدين لديهم فقد كان عبارة عن طريقة للحياة قبل كل شيء هم جاءوا بافكار ذات اثير ملحوظ في نظرية المعرفة وفي الاخلاق لكن الملاحظ ان نظرياتهم وافكارهم كانت الى التصوف والتطهر الخلقي اميل ، وهذا اثر من آثار افلوطين ، رغم ان ويتشكوت كان لا يفتأ يذكر قارئه بأن « العقل سراج الله » [1] .

وكانوا هم الذين حفظوا الكنيسة الانجليزية من ان تفقد صلتها بالامة كما يقول بيرنت [2] وذلك عن طريق محاربة الجدل الاسكولائي الذي سيطر عليها في اوائل القرن السابع عشر .

وقد لعب أفلاطونيو كمبردج دوراً طيباً في عالم الفلسفة واللاهوت . على ان « و.ر . سورلي » يذكر ان هذه الجماعة لم يكن كل رجالها فلاسفة ، او افلاطونيين . إذ أن اتجاههم الديني – في المحل الأول – هو الذي أدى الى اعتبارهم مدرسة وإعطائهم اسماً خاصاً هو (الرجال الأحرار) .

ولعمري ان في هذا شبهاً كبيراً بين المعتزلة وأفلاطونيي كمبردج . إذ أن مباحث هؤلاء الكلامية هي مباحث تلك اللاهوتية .

وحتى الاسم الذي اشتهر الأخيرون به (الرجال الأحرار) ينطبق على المعتزلة تمام الانطباق ، وهم يعرفون به اليوم لدى الدارسين الغربيين .

فماذا يقول أفلاطونيو كمبردج أيضاً ؟ ..

هم تجنبوا مراوغات اللاهوت المنتشرة ، وعارضوا التسرع في الإيمان

---

(١) انظر « الموسوعة الفلسفية المختصرة » / ١٩٦٣ .
(٢) A History of English Philosophy ص ٧٥ .

والحماس (أو ادعاء الوحي الخارجي) .. وقالوا بأن **الدين الحقيقي يجب أن يتسق مع الحقيقة العقلية وركزوا على العوامل الاخلاقية والعقليـة في الدين**(١)

الدين الحقيقي السليم اذن يجب ان يتفق مع العقل ولا يخرج عن نطاقـه، وإلا كان هراء ولغواً . وهذا بالضبط هو موقف المعتزلة .

وماذا عن الله ؟ ..

إن روح الطبيعة هي التي تقوم مقام الاله في الكون . فمـور More مثلا يرى ان « الكون الطبيعي بأجمعه تتخلله روح . هذه الروح العامـة الانتشار ليست الإله ذاته ، بل هي روح الطبيعة » (٢)

أما عن صفات الله ، فأهمها : الصدق ، والعدل ، والخيريـة . الله صادق، وعادل ، وخير . وماذا قال المعتزله غير ذلك ؟.. الله لديهم صادق لا يخلف وعده أو وعيده ، والله عادل وهم أهل العدل ، وهو خير فلا يبخـل على عباده بل يفعل بهم الأصلح دائماً .

ثم نأتي إلى مسألة اخرى تتضح فيها الصلة بين المعتزلة وأفلاطونيي كمبردج بجلاء ، وأعني بها مسألة الحسن والقبح العقليين .

يرى (مور) أن : « **الفضيلة ليست عادة** ، بل **قوة .. قوة عقليـة للروح ملغية للعواطف** .. فالعاطفة ليست خاضعة فحسب للطبيعة بل للعقل السليم . وكما أن ماهية الشيء تدرك بالفهم ، وأن المثلث (مثلا) هو مـا يدركه العقل كما هو كذلك ، فإن الشيء نفسه يمكن أن يقـال في الأخلاق ؛ **فتوجد أفكار غير متغيرة عن الخير والشر ، وهي التي يحكم فيهـا العقل ،** فتوجد حقائق اخلاقية أولى ، أو مبادىء اخلاقية » (٣)

أي أن العقل يحسن ويقبح ، وبه وحده يعرف الخير والشر. وهذه نظرية يتفق فيها (مور) مع المعتزلة تمام الاتفاق .

---

(١) A History of English Philosophy ص ٧٥ - ٧٦ .

(٢) نفس المصدر ص ٨٤

(٣) نفس المصدر ص ٨٧

يقول (مور) : «إن كل الخير الأخلاقي – كما يسمى بحق – عقلي وإلهي. عقلي طالما حددت ماهيته وحقيقته وعرفت بالعقل، إلهي طالما كانت حلاوته أكثر لذة ، واكثر إمتاعاً بالفعل في تلك الملكة الالهية التي بها نسمو إلى الإله الاكثر صفاءً وإطلاقاً . » (١)

الحرية الانسانية :

وكما تعرض المعتزلة لقضية الحرية الانسانية ، وللقدر ، كذلك فعل أفلاطونيو كمبردج . هم ناقشوا هاتين المسألتين وبينوا موقفهم الواضح منهما. وعندما بدأ (رالف كدوورث) يكتب كتابه « النظام العقلي الحقيقي للكون » كان يضع في ذهنه فقط حديثاً عن الحرية والضرورة . (٢) .

ومثلما آمن المعتزلة بالاختيار الانساني وبحرية تصرف الانسان وأفعاله ، كذلك فعل أفلاطونيو كمبردج ؛ فوقفوا في وجه المنادين بالقضاء والقدر ، وعارضوا القول بالجبر وتحكم قوى خارجية في أفعال الانسان . وكانت هناك ثلاثة أنواع من القدرية (القول بأن كل شيء مقدر منذ الأزل) دحضها أفلاطونيو كمبردج وعارضوها .

الاولى : القدرية المادية الملحدة التي يسميها كدوورث بالديموقراطية .
والثانية : القدرية المؤمنة اللا خلاقية التي تحيل كل شيء إلى الاله ، وتقيم التمييز بين الخير والشر على أسس تعسفية . وثالثها : شكل آخر من القدرية المؤمنة التي على الرغم من انها تقبل اضافات اخلاقية في الإله لا تترك مكاناً للحرية الفردية (٣) .

في وجه هذه الانماط الثلاثة من القدرية وقف أفلاطونيو كمبردج بشدة ،

---

(١) ص ٨٨
(٢) ص ٨٩
(٣) ص ٩٠

مؤيدين حرية الانسان واختياره وقدرته على الفعل والتصرف .. تماماً مثلما فعل المعتزلة من قبل .

ثم يبرز سؤال جديد :

ما هو مقياس الدين الصحيح في رأي أفلاطونيي كمبردج ؟ أو بعبارة أخرى : ما هي أسس الدين الصحيح ؟..

هنا نجد أن (رالف كدوورث) – وهو من أشهر قادتهم – يقدم ثلاثة أسس تشكل ضروريات الدين الصحيح – في رأيه – غير المعتمد على الوحي والتنزيل ، بل على العقل وحده :

١ – وجود الإله ؛ وهذا يمكن إثباته بالدليل إذا لم يكن معرفة ضرورية أولية .

٢ – الطبيعة الخالدة للخير ؛ بمعنى أن الخير ذو طبيعة ثابتة لا تتغير بتغير الظروف او الزمان أو المكان .

٣ – حرية الانسان ؛ وهذه تعطي الإنسان قيمته البشرية من حيث هو مخلوق مفكر عاقل ، حر التصرف ، مكلف ، محاسب على ما يفعل، فيعاقب أو يثاب [١] .

هذه هي عناصر الدين الصحيح غير المشوب بالتأويلات والتفسيرات التي تبعد عن تيار العقل السليم ، وتجعله مجرد خرافات وأساطير وطقوس .

ولقد خطط « كدوورث » لكل من هذه العناصر الثلاثة مشروع كتاب مستقل يشرحه فيه . لكن الكتاب الأول فقط – وهو المعارض للألحاد – هو الذي أكمل ونشر .

●

هذه مقارنة عابرة بين مدرستين متباعدتين في الزمان، لكنهما متقاربتان

(١) نفس المصدر ص ٩٠ .

في الفكرة . ظهرت الاولى ممثلة لأحد التيارات الفكرية الأسلامية ، وظهرت الثانية بعدها بثمانية قرون في أقاصي الغرب المسيحي ،أحببنا الأشارة اليهـا حتى نتبين معالم سبق المسلمين في هذا المجال .. مجال احترام العقل وتحكيمه.

والآن وقد أحطنا علماً بجوانب كثيرة تظهر فيها النزعة العقلية في تفكير المعتزلة ، في مختلف المسائل التي تعرضوا لمناقشتها والخوض فيها ، وأدركنا كيف انتهى بهم الأمر الى اثبات هذه « الشريعة العقلية » .. فقد آن لنا ان نعرض لتيار جديد ظهر من صلب المعتزلة ، وانقلب عليهم . وأعني بـه التيار الأشعري .

انقلاب الأشعرى

إنقلاب الأشعري

غلو المعتزلة في العقل ــ رد الفعل وأثره

تطور الأخذ بالعقل ــ كما لمسنا ــ عنــد المعتزلة كثيراً ، ومر بثلاث مراحل . فبعدأن كان العقل وسيلة لفهم الدين وتفسير نصوصه،أصبح مساوياً للشرع وندأ يحاول المعتزلة التوفيق بينهما في جميـع الحالات . ثم غلبوا العقل على النقل تغليباً كبيراً ، وعملوا على تطويـع الوحي ليكون هو في خدمــة العقل . وبهذا انقلب الامر الى عكس ما بدىء به ، ونشأ عن هذا الصراع الطويل الحاد بين أهل السنة وأهـل الاعتزال . ثم ظهرت في القرن الثالث فرق كالكرامية وسواها تعارض اتجاه المعتزلة وتعاندهم، وبدت بوادر التمرد والضيق بهذه المناقشات والجادلات المتزايدة . وفي هذه الاثناء حدث انقلاب الاشعري الشهير ، الذي غير موازين القوة ورجح كفة أهل السنة على أهــل الاعتزال .

ولا ريب ان الغلوّ الشديد في التعقيل عند المعتزلة كان سبباً من أسبـاب انتقاض الكثيرين ــ ممن يشعرون بعمق العاطفة الدينية لديهم ــ على المعتزلة ونفورهم منهم . كما أن هذا التعقيل وما تبعه من مجادلات وأقوال في التكليف العقلي والمعرفة الضرورية، والصلاح والاصلح، أوقع شيوخ المعتزلة في تناقضات

عديدة ، جعلت من السهل على خصومهم قطعهم في الجـدل الكلامي والنقاش الدائر حول مختلف المشكلات .

لكن بوادر الانتقاض على المعتزلة – حتى من أقرب تلاميذهم اليهم – كانت متجمعة في الأفق السياسي والثقافي والديني ، بسبب اتهامات أهـل السنة ، يتبعهم عامة الشعب ، لهم بالالحاد والكفر وسبب عوامل التفكك والانحلال التي تسربت الى صفوفهم ، حتى بات يكفر بعضهم بعضاً ، ويتراشقون بأشنع التهم .

وكان ابو الحسن الأشعري (المتوفي سنة ٣٢٤ هـ) أحـد تلامذة أبي علي الجبائي ، عاش في بيته ، ونما مع المعتزلة أربعين عاماً، تشرب خلالها مذهب الاعتزال وأتقنه .

لكن حادثة صغيرة – تماماً مثلما حدث من واصل مـع الحسن البصري – ونقاشاً دار حول مسألة الصلاح والأصلح جعلت أبـا الحسن الأشعري ينقلب على المعترلة ويعلن انفصاله عنهم ، وعودته إلى حظيرة أهل السنة (١) .

وتتلخص القصة – كما ترويها كتب الفرق – في أن الاشعري سأل استاذه:
– أيها الشيخ ! ما تقول في ثلاثة : مؤمن وكافر وصبي ؟
فقال الجبائي : المؤمن من أهل الدرجات ، والكافر من أهـل الدركات ، والصبي من أهل النجاة .

فقال ابو الحسن : فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات، هل يمكن؟.

قال الجبائي : لا . لأن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعـــة ، وليس للصبي مثلها .

---

(١) راجع (تاريخ الفلسفة في الاسلام) . ص ١١٦ وما بعدها . (والمعتزلة) لزهـدي جار الله ص ٢٥٤ – ٢٥٨ .

قال الاشعري : فإن قـال التقصير ليس مني ، ولو أحييتني يا رب كنت عملت الطاعات كعمل المؤمن .

قال الجبائي : يقول له الله : كنت أعلم انك لو بقيت لعصيت ولعوقبت ، فراعيت مصلحتك وأمتـك قبل أن تنتهي إلى سن التكليف .

قال الاشعري : فلو قال الكافر ؛ يا رب ! علمت حاله كما علمت حالي، فهلا راعيت مصلحتي مثله ؟!

فانقطع الجبائي ، وسكت .

ومنذ ذلك الحين اعلن الاشعري انفصاله عن المعتزلة ورجوعه الى حظيرة أهل السنة واتباع الامام أحمد بن جنبل (١) .

ولا شك ان الاشعري كان يبيت نية الانفصال والاستقلال ، بعد مـا رأى من تخبط المعتزلة ، وما شاهد من تألب الفرق ضدهم ، ليتخذ بعد هـذا طريقاً وسطاً (٢) بين اهـل السنة والمعتزلة الذين لم يزل متأثراً بآرائهم ، وبالمشكلات التي خاضوا فيها ، وبطريقتهم في الجدل والكلام .

كان موقف الاشعري – ومن تبعه بعد ذلك – رد فعل معتدل ، حاول فيه باخلاص ان يوازن بين التيارات المتنازعة . ان نظرة واحدة الى اغلب آرائه الدينية والكلامية في مسائل خلق القرآن ، والصفات ، والافعـال الالهية والانسانية ، ونحوها من المسائل ، لتبين بجلاء مبـدأ التوسط الذي نهجه .

---

(١) تروى قصة انفصال الاشعري على انه اقام مع المعتزلة أربعين عاماً ، حتى صار اماماً للمعتزلة . ثم غاب خمسة عشر يوماً عن الناس ، ثم خرج الى الجامع وصعد المنبر وقال : معاشر الناس ! انما تغيبت، عنكم هذه المدة لاني نظرت فتكافأت عندي الادلة ولم يترجح عندي شيء على شيء فاستهديت الله تعالى فهداني الى اعتقاد ما اودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ماكنت اعتقده كما انخلعت من ثوبي هذا . وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٤

لكن لعل اهم ما جاء به الاشعري ـ وان كان « دي بور » يقرر انـــه لم يأت بجديد ـ هي نظريته الشهيرة في الافعال الكسبية ، في محاولة لفض مشكلة الفعل الانساني ومدى نصيبه من الحرية الذاتية ـ وهي نظرية تتوسط بين الفريقين المتنازعين ؛ أهل السنة ، وأهل الاعتزال .

اما موقفه من العقل فكان موقف المعارض . اذ هو لا يعتبر العقل المستقل عن الوحي سبيلاً الى معرفة الشئون الالهية ، بقدر ما جعل العقـــل (الة) لفهم الوحي المنزل (١) .

وكان لانفصال الاشعري ودعوته الى مذهبه المعتدل الجديد أثره العميق في اضمحلال مذهب الاعتزال ، ثم انهياره بعد ذلك ، حين تضافرت العوامل السياسية مع التفكك الذي طرأ عليه ، والهجوم المستمر من قبـــل الفرق الاخرى ... فآذنت شمس المعتزلة بالمغيب .

ولم يلبث مذهب الاشعري ـ وان كان قد عورض بشدة من قبل الحنابلة ان ذاع وانتشر ، ، وأحيا مذهب اهل السنة من جديد ومكن له في الارض واصبح هو المدافع عن العقائد السنية، وان لم يتخلص تماماً من تأثير المعتزلة.

---

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام ، ص ١٨٨

بعض مواقف المعتزلة العقليّة

بعض مواقف المعتزلة العقلية

ان النزعة العقلية في تفكير المعتزلة روح تسري في جميع ما يكتبه شيوخهم، وهي سمة ظاهرة تغلب على آرائهم الدينية والدنيوية . ورغم انك لن تجد ابواباً او كتباً تتحدث عن هذا الموضوع وحده وتشرحه وتبينه مذهباً شاملاً متكاملاً يسيرون عليه وينتهجون نهجه ، الا انك عاثر حتماً على هذا المذهب العقلي في ثنايا شرحهم للمشكلات الكلامية المختلفة ، وتدليلهم على سلامة ما ذهبوا اليه . وانت مصطدم به أثناء قراءتك للمسائل الكبرى التي شغلت الاذهان وشع من خلالها نور العقل المعتزلي الوهاج .

فإذا قدموا أدلة وبراهين فانهم يقدمون أدلة عقلية صرفة في مسائل دقيقة من مثل اثبات الله موجوداً ، واثبات حدوث الاشياء والافعال ، وانه المحدث وان الاعراض غير قديمة . ونلاحظ ان هذه الادلة العقلية كانت سهلة بسيطة اول الامر ثم تعقدت، وتشعبت حتى بات من الصعب على غير المتخصص فهمها الا بعد معاناة ومعرفة بالاصطلاحات والمفهومات اللغوية الفلسفية الخاصة [١]

فإذا ارادوا اثبات الله موجوداً مثلاً قالوا :

(١) راجع الجزء الثاني من : المجموع من المحيط بالتكليف . لابن متويه .

« الوجود صفة معقولة ، ولا يحد الموجود بلفظ اوضح منه .

والعلم بهذه الصفة عن طريق الجملة ضروري،وانما يحتاج للاستدلال للمعرفة بها عن طريق التفصيل [1] .

ثم يبني بعد ذلك على هذا المنطق ـ لي التسليم بمعرفة الله ضرورة . فلو قلنا مثلاً لانسان : أنت موجود ، وانكر وجوده لكان مخبولاً فلا يناقش فلو اعترف بوجوده وطلبنا تحديده بغير انه (موجود) لما استطعنا .

فللمعتزلة اذن بديهيات وأوليات لا يمكن الجدل فيها لانها من ضروريات ادراك العقول .

ولما كانت بدايات الديانات هي في اثبات الله موجوداً ، كان المعتزلة سباقين الى إثبات هـــذا الوجود عقلاً ، للتدليل على قوة العقل من ناحية ، وللبرهنة على غير المسلمين أو المؤمنين من ناحية أخرى ، ولأن القرآن نفسه كان يفعل هذا بلفتِ الأنظار الى آيات الله في الكون .

والمتتبع لأدلتهم يرى فيها من الوضوح والقوة ما يدعو الى الأعجاب .

فعندما يقول أحدهم : ان العلم بصفة الشيء فرع عن العلم بذاته [2]، مثلاً نجد أن هذا شيء بديهي، فإننا إذا أثبتنا القدرة لله سبحانه عرفنا أنه موجود إذ لا قادر غير موجود ، وهذا تفسير عقلي محض وتدليل سليم .

أو يقولون : إعلم أن إقامة الدليل على الشيء فرع على كونه في نفسه معقولاً . فأما ما لا يعقل فإيراد الدلالة عليه لا وجه له [3] .

وعندما يقولون : « إن النظر أول الواجبات » [4] فـانهم يستدلون على

---

(١) كأنما العلم بالله خاصية عقلية .

(٢) ص ٢٦ من : المجموع من المحيط بالتكليف .

(٣) نفس المصدر ص ١٨ .

(١) نفس المصدر ص ١٠ .

هذه النظرية بأن الدافع الأول للنظر هو الخوف من تركـه ، وقد ثبت في العقل وجوب دفع الضرر حتى المحتمل منه .

وإذا تحدثوا عن قبح الظلم قالوا : إنك تعلم – بعقلك – قبح الظلم ، فاذا عرفت في شيء بعينه أنه ظلم كفاك هذا في علمك بقبحه (١) .

أي أنهم يحيلونك الى عقلك لتستعمله وتدرك بـه صفة القبح الكامنة ، الثابتة ، في الظلم ، ببديهية بسيطة واضحة .

وفي أواخر أيام ازدهار المعتزلة ظهرت النزعة العقلية كأوضح ما تكون، وكانت مباحثهم في المسائل الطبيعية ذات الصبغة الفلسفية ، كالجزء الذي لا يتجزأ أو الجواهر ، والأعراض ، والأجسام ، والحركات ، والسكنات ، وطبائع الأشياء ، وغيرها ، نتيجة حتمية لاتجاهاتهم العقلية .

وجاء الجبائي ليقول – الى جانب آرائه العقلية الأخرى – إن العقل يتدخل حتى في إطلاقنا صفات الله واسمائه عليه . فنحن نسميه عادلاً ، أو خيراً ، أو صادقاً ، إذا ما رأى العقل ذلك ، لا على سبيل التلقيب والمدح بل على أنها صفات وأسماء لعلم واحد .

ثم يثبت معنىً جديداً للبلوغ – الموجب للتكليف . فهو عنده ليس الاحتلام أو السن ، وإنما هو « تكامل العقل » ، والعقل هو العلم ، فكأن البلوغ تكامل العلم الذي ينقسم الى : علم الاضطرار ، والمشاهدة الحسية ، والنظر أو التفكير .

وليس معنى هذا أنه لا بد للمكلف من أن يكون كامل العلم (أو العقل) لكن لا بد له من نوع من العلم ليكون مكلفاً ، وهو الاضطرار الى معرفة الحسن والقبح (٢) .

---

(١) نفس المصدر ص ١٣ .

(٢) مقالات الاسلاميين للأشعري جـ ٢ ص ١٥٥ .

لكن المعتزلة – وإن غالوا في تقدير العقل – لا يخرجون عن القول بأنه من أعظم نعم الله علينا (١) .

فالعقل إذن نعمة من الله تعالى وليس نقمة . فهو الوسيلة الى معرفة الخالق وشكره .

ولقد سبق المعتزلة الفيلسوف الفرنسي (رينه ديكارت R. DESCARTES) بزمن طويل في القول بأن العقل « هو أعدل الأشياء قسمة بين الناس في العالم » فقد كانوا يعتقدون أن كل فرد من بني البشر له نصيب مساو لغيره من العقل – ما عدا المجانين وأضرابهم ، فهؤلاء خلقوا للسخرة والعبرة والموعظة .

وإن كان أحمد أمين يقرر أن عدم إدراك المعتزلة للتفاوت بين العقول جعلهم يغلون في فرض آرائهم وعد من لا يفهم كالأنعام (٢) .

ولا ريب أن هذا موقف خاطىء لأن التفاوت في العقول واضح للعيان وبه يتفاوت الناس في الفهم والادراك .

مدى تطبيق المعتزلة لآرائهم :

قلنا ان المعتزلة نادوا بالعقل ، وبالاختيار الانساني ، وبالحريـة الفردية ، وبآراء تدعو الى أن يختار كل انسان ما يحلو له فعله ، وهو يعلم أنه محاسب بعد ذلك على ما يفعل ، وكذا ما يطيب له اعتقاده .. فهل طبق المعتزلة هذه المعتقدات ؟.. هم فعلوا ، ولم يفعلوا ..

فعلو من حيث ايمانهم بالعقل كوسيلة أولى للمعرفة ، والتمسك به رغم ما جر عليهم ذلك من بلاء ، ومن حيث الايمان بالنقد ، وبالنقد الذاتي فيما بينهم ومن حيث الاهتمام بالمسائل العقلية في مجـال العلم الطبيعي والاحتفال بالتجربة

---

(١) المجموع من المحيط بالتكليف ص ١٤ ج ١ .
(٢) ضحى الاسلام ج ٣ ص ١٩٢ ط خامسة .

الحسية الواقعية ، ومن حيث التحرر من كثير من قيود التزمت ومن الخرافات والخزعبلات والأساطير . لكنهم لم يفعلوا بالنسبة لخصومهم الذين عارضوهم في الرأي .. وتكفي محنة « خلق القرآن » لتبين مدى طغيان المعتزلة إبان سيطرتهم على الحكم وممالأة الحكام لهم ، ومدى تضييقهم على معارضيهم حتى بلغ الامر حد الجلد والقتل [1] ، وتنكرهم لمبدأ الحرية الفردية ، ومحاولتهم إرغام الناس جميعاً بقوة الحديد والنار [2] ، بعد أن فشلت قوة الاقناع ، على اعتناق مذهبهم واعتقاد آرائهم . وقد لاقى أحمد بن حنبل وأتباعه من الأذى والاضطهاد ما ينبغي ان يربأ دعاة الحرية الانسانية عنه ، وما كان سبباً في نفور الناس من مذهبهم .

لقد فشل المعتزلة في تطبيق معتقدهم ـ وإن كان أحمد أمين يتلمس لهم المعاذير ـ إذ أنه لايمكن لأي قوة في الأرض أن تدخل في رؤوس الناس فكرة يرفضونها ، مهما سمت هذه الفكرة ، ومهما سلط السيف على الرؤوس .

---

(١) من الممكن الدفاع عن غلظة المعتزلة في معاملة خصومهم ، بأنهم ما فعلوا هذا الا لثقتهم التامة بصحة معتقدهم ، كما انهم ـ في جدالهم لهؤلاء الخصوم ـ كانوا لا يلقون استجابة كبيرة للجدل والتسليم والاقتناع عند العجز عن رد الحجة والبرهان . فقد كان هؤلاء الخصوم ـ وفي مقدمتهم احمد بن حنبل ـ يلوذون بالصمت ويرفضون المسايرة في النقاش ، ويتمسكون برأي واحد لا يتزحزحون عنه . كما حدث في جدل احمد بن ابي دؤاد له في مسألة خلق القرآن . اذ كان موقف ابن حنبل سلبياً تماماً ولا يدل على رغبة في الفهم والاقتناع . كما انه من الممكن الفصل بين اعتناق المعتزلة لمبدأ الحرية والعقل ، وبين شدتهم في العمل على تسويد مذهبهم . وهذا يحدث كثيراً من دعاة جميع الافكار والمعتقدات .

(٢) احمد امين ٣ ضحى الاسلام ص ٧٣ ط سابعة .

نظرة إجماليّة

نظرة إجمالية

يخيل إلي الآن أننا قد أحطنا بصورة– ولو بسيطة – عن طبيعة ومميزات الفكر المعتزلي ، وأدركنا الطابع العقلي لهذا الفكر المتحرر .

ولا ينبغي هنا ـ وقد كدنا أن نشارف نهاية هذا البحث ـ ان ننهيه دون التنويه ببعض الجوانب التي فاتتنا الاشارة إليهـا من جوانب تفكير المعتزلة ونظرياتهم وآرائهم .

وأول هذه المسائل هو ما كان يتجلى بوضوح ـ خاصـــة لدى متأخري شيوخهم ـ من انهم كانوا لا يقبلون مسلمات عامة دون مناقشتها ، فإذا مـــا سلموا بها رفضوا أن يسموها إلا باسمها الدال على انها قابلة للنظر والنقد وانها ليست شيئاً أزلياً خالداً ، بل هي مجرد « دعاوى » تتعرض للنفي كما تتعرض للإثبات . فان قيل لهم : لم سميتم هذه الوجوه « دعـاوي » ? ... قالوا : لأن الدعوى كل خبر لا يعلم صحته وفساده إلا بدليل ، بل نعلم ذلك ضرورة وهذا حال كل واحدة من هذه الدعاوى ، فيجب أن تسمى دعاوي لأنـه لا يعلم صحتها الا بدليل ، ولأن في كل واحدة من هذه الدعاوى خلافاً . (١)

هم يسمون مقدمات أدلتهم « دعاوى » زيادة في الحيطـــة والحذر ، إذ

(١) تعليق على شرح الاصول الخمسة للفرزاذي ص ٦٥ .

علموا انه من الممكن دحض حجة يعتمدون عليها بحجة أقوى منها ، فسموها (دعوى) قابلة للتمحيص وتقليب الرأي فيها . ثم هم يحاولون اثباتها منطقياً عن طريق افتراض معارضات حتى في ادق الامور وأقربهـا إلى التسليم والاقتناع .

لنقرأ مثلاً هذا النص من (شرح الاصول) بعد أن يبين ان الاستدلال على وجود الله بالاجسام أولى من الاستدلال بالاعراض ، ويشرح لماذا كان هـذا التفضيل ، فيقول : « ... وهذه الدلالة مبنية على اربع دعاوي . أحدها ان في الجسم معاني غيره ، الثانية انه يعلم محدثه ، الثالثة ان الجسم لم يخل منها ، الرابعة أن الجسم إذا لم يخلُ منها [1] وجب ان يكون محدثاً مثلها » .

ثم يرتب هذه الدعاوى الاربع ؛ الاولى متقدمة ، والرابعـة متأخرة . واللتان في الوسط لا ترتيب لهما لأنه لا يترتب العلم باحداهما على العلم بالاخرى. أما الاولى فتكون متقدمة لنعرف ان هاهنا معاني محدثة لا يخلو الجسم منها فيكون محدثاً . واما الرابعة فتكون مؤخرة لأنهـا كلام في أن الجسم إذا لم يخل من هذه المعاني المحدثة وجب ان يكون محدثاً مثلها .

« فما لم نعرف ان هاهنا معاني ، وأنها محدثة ، وان الجسم لم يخـل منها لا يمكننا القول بان الجسم إذا لم يخل منها وجب ان يكون محدثاً مثلها . »

تسلسل منطقي متين ، يقرّبه المؤلف بأن يشبهه بكأننـا إذا أردنا أن نجمع بين أصل وفرع بعلة من العلل في حكم من الاحكام ، فلا بـد من أن يكون الاصل والفرع والعلة والحكم كله معلوماً لنا ، ليمكننـا رد الاصل إلى الفرع وذلك الحكم إلى تلك العلة ..

أما المسألة الثانية التي أود الاشارة إليها فى مجال تفكير المعتزلة العقـلي

---

(١) من الحوادث التي هي الاجتماع والافتراق والحركة والسكون ، وما لم يخل من الحوادث يجب ان يكون محدثاً مثلها .

فهي قضية الانصراف إلى تأمل الذات للوصول إلى المعرفة اليقينية، ثم النظر في ما حول الانسان من مظاهر تؤدي إلى هذه المعرفة عن طريق النظر والاستدلال.

نقرأ مثلاً : « ثم سأل رحمه الله (القاضي عبد الجبار) نفسه في بداية الفعل فقال : ما الطريق الذي يكون النظر فيه مؤدياً الى معرفة الله تعالى ؟ وأجاب عنه بأن قال : نفسي وما أشاهده من الاجسام (١) ثم سأل رحمه الله نفسه عن هذا فقال : ومن أين يدل نفسك وأجسام العالم على الله تعالى ؟ وأجاب عنه بأن قال : لأن في حال الكمال لا أقدر على أن اخلق مثلي ولا مثل بعضي ، فعلمت أن لي خالقاً ومحيياً ومميتاً هو الله تعالى ، وتفصيل ذلك أن الواحد منا يختص بمعاني هي البيئة والتأليف والتركيب واللحمية والدمّية والرطوبة واليبوسة ، وهذه المعاني كلها محدثة وإنها محتاجة إلى محدث ، فإن محدثها لا يجوز أن يكون قادراً بقدرة ، بل يجب أن يكون فاعلاً مخالفاً لنا وهو الله تعالى (٢) . ووجه آخر من الاستدلال بأنفسنا وهو ما قد ثبت ان الواحد منا يتنقل في أحوال لا يجوز أن يتنقل فيها إلا بفاعل ومدبر وهو الله تعالى » .

أما المسألة الثالثة فهي ما يلاحظه الدارس للفكر المعتزلي من اهتمامهم بتحديد المفهومات ، ونقد اللغة ، نقداً يزيل الالتباس عنها ، او ما يحيط بها من غموض قد يعرقل الوصول الى الحقيقة المنشودة .

---

(١) بالرجوع إلى القرآن الكريم نجد أنه يدعو الى النظر في النفس لاستخلاص المعرفة (ومن انفسكم أفلا تبصرون) كما يدعو الى التدبر في المشاهدات الحسية المحيطة بنا. ومن العجيب حقاً ان جل الفلاسفة والمفكرين - وأصحاب الرسالات ، لا ينفكون يدعون الانسان الى النظر في نفسه ليحصل له اليقين الذي يبحث عنه ، ويثبت ما هو في ريب منه . ومنذ اسدى سقراط نصيحته الغالية (اعرف نفسك) حتى أثبت ديكارت وجود الله عن طريق الكوجيتو والنظر في النفس، ليتبين انه (يفكر فهو موجود) .. نجد اننا في حاجة مستمرة الى التفكر والتأمل في نفوسنا وذواتنا .

(٢) تحسن الاشارة هنا الى حديث القاضي عبد الجبار عن فكرة الكمال مرات كثيرة كدليل على حدوث الانسان ، لافتقاره إليه ، ص ٦٥ من نفس المصدر .

وقد رأينا اهتمامهم بالتعريفات والحدود ، حتى لا تبقى هنـــاك فرصة لسفسط ينتهزها في جدله ليبطل حجة مجادله .

ورأينا في حديث (الدعاوى) تركيزهم على أداء الكلمـة أو الاصطلاح للمعنى المقصود منه ، دون السماح له بأن يخرج الى معان ومفهومات قـد لا تخدم قضية الحق .

وهذا شيء طبيعي في جماعة تأثرت بالمنطق اليوناني ودرسته ، واتخذت من الجدل وسيلة لنشر آرائها ودعوتها ، وما أقرب الشبه هنا بين موقف المعتزلة من المسفسطين الاسلاميين ، وموقف سقراط من سفسطائيي أثينا ، وبحث هذا الفيلسوف عن المعاني الكلية ، واحتفاله بالحدود والتعريفات .

حتى كلمة (العقل) – وهي رائدتهم في مسيرتهم – ابوا إلا ان يعطوها حقاً مفهوماً محدداً، فيعلل ابو علي الجبائي تسمية – (العقل) – الذي هو عنده العلم – عقلاً ، بأن الانسان يمنع به نفسه عما لا يمنع المجنون نفسه عنه ، وبأن ذلك مأخوذ عن (عقال البعير) الذي يمنعه .

وهنا نلتقي بتداخل طريف بين المفهومات اللغوية والمعاني الفلسفية – ومن قال بأن اللغة ليست تعبيراً عن خلجات النفس ونظرات الفكر ؟ ..

الأمر الرابع الذي تظهر فيه قوة المعتزلة العقلية ، واعتدادهم بهذا العقل، هو عنايتهم باثبات الآراء عن طريق ابطال نقائضها – حتى وان لم يقل أحـد بهذه النقائض – عن طريق افتراض من يقول بها :

ففي مسألة اثبات الله واحداً مثلاً يقول القاضي عبد الجبار : « اول مـا في ذلك يجب أن نعلم معنى قولنا واحد [1] .

جملة القول في ذلك ؛ ان قولنا (واحد) تستعمل على معنيين ؛ أحـدهما أنه لا يتجزأ ولا يتبعض ، والثاني انه على صفات مخصوصة لا يشاركه فيهـا غيره . واذا قلنـا ان الله تعالى واحـــد فليس المراد به انه لا يتجزأ ولا

(١) لاحظ التدقيق العميق في تحليل المفهومات – كعادتهم .

يتبعض ، وذلك لأنـّا نؤكد بهذا المدح، ولا مدح في انه لا يتجزأ ولا يتبعض، فان الجزء المنفرد لا يتجزأ ولا يتبعض ولا مدح له في ذلك . بل اذا قلنا ان الله تعالى واحد انه مختص بصفات لا يشاركه فيها غيره نفياً واثباتاً .

واعلم أن من خالف في هذا الباب مخالفة لا يخلو أمره من أن يقول ان مع الله تعالى قديماً ثانياً يشاركه فيما يستحقه من الصفات أجمع نفياً واثباتاً ... وإما ان يقول ان مع الله تعالى قديماً ثانياً يشاركه في بعض صفاته .

أما الأول فلا قائل به ، ولكننا اذا ادعينـا أمرا من الامور قررناه بدلالته .. الخ . [1]

الى هذا الحد وصلت قوة عقل اهل الاعتزال .. الى حد انهم يدعون الامر ، ولا قائل به يحاجونه ويجادلهم فيه ـ ويفرضون الفروض ، ثم يعملون على دحضها وابطالها .

وبهذا كانت حجتهم أقوى ، ودليلهم أصلب ، وبرهانهم أمتن عند الجدل والكلام .

(١) نفس المصدر السابق .

تأثير نزعة المعتزلة العقلية

تأثير نزعة المعتزلة العقلية

اتضح لنا مما سبق ـ عند حديثنا عن انقلاب الاشعري على المعتزلة ـ ان أبا الحسن اتخذ موقفاً وسطاً بين أهل السنة والمعتزلة ، موقفاً حاول فيه التوفيق والتقريب بين المذهبين المتنافرين في كثير من القضايا التي عرضنا لها . لكننا لم نشر الى تأثير المعتزلة في اتخاذ الاشعري هذه الوجهة في مذهبه الجديد . وقد آن لنا ان نوضح هذا التأثير في الاشاعرة خاصة ، وأهل السنة بصورة عامة ، حتى نعطي صورة جلية بقدر الامكان عن مدى أثر اهل الاعتزال .

قلنا ان الاشعري عاش أربعين عاماً طويلة في حجر المعتزلة ، متغذياً بأفكارهم ، متشرباً لأرائهم . ثم بدا له ان يخرج عليهم ويقف ضدهم مهاجماً ومؤازراً أهل السنة من السلفيين .

وبصرف النظر عن مدى صحة الرأي القائل بأن الاشعري ما فعل هذا الا بعدما رأى من مقدمات انهيار المعتزلة ، ووجوب قيام رجل يحمي (حصن العقل) من غضبة الفكرية الفكية المنتصرة باتخاذ سبيل وسط ، فانه من

المسلم به ـ سواء بالنظر الى طريقة تفكير الاشعري او المدة التي قضاهـا في حمى الاعتزال ـ انه لم يتخلص أبداً من تأثير نهج تفكير المعتزلة العقـلي ، واحتفاله بالعقل هذا الاحتفال الكبير .

ان اربعين عاماً من التشبع بالمذهب المعتزلي ، والاحتكاك بزعمائـه ، لا يمكن التخلص منها ومن آثارها دفعة واحدة .. وهـذا ما كان من امر أبي الحسن، حتى ان اتباع احمد بن حنبل ابوا ان يقبلوه في عودته اليهم، وهاجموه أقسى هجوم هو وانصاره والقائلين بمذهبه ، ولم ينل الاشعري الحظوة عنـد المحدثين وأهل السنة عامة الا بعد مرور مدة طويلة تأكدوا فيهـا من صدق دعوته . ذلك لأن الأشعري كما يقول ابن الجوزي: ظل دوماً معتزلياً ، وهذا ما دفع الحنابلة ـ بتأثير الثأر القديم بينهم وبين المعتزلة ـ الى رفضه والهجوم عليه .

ويبدو هذا التأثير المعتزلي بيناً في الاشاعرة حين نلقي نظرة على مقالاتهم في المسائل الكبرى التي كانت مثار جدل وكلام ، من مثل مسألة الصفات ، وكلام الله ، والتأويل ، والفعل .. الخ .

ففي مسألة الصفات مثـلا رفض « الغزالي » أن يكفر المعتزلة لنفيهم الصفات [1] ، وكان بعض اهل السنة يكفرونهم به ، وجاء « الباقلاني » ليقول مثل « أبي هاشم الجبائي » بالاحوال ، كما ردوا الصفات إلى سبـع فقط ، وقالوا بصفات (أو أسماء) الافعال غير الأزلية ، كالرازق والخالق والمعز والمذل [2] .

وفي مسألة كلام الله قال الاشاعرة إن الحروف والاصوات مخلوقة وهم بهذا اقتربوا من قول المعتزلة قليلا في مسألة القرآن .

كما اهتم الاشاعرة بالتأويل وسمحوا بتأويل الآيات التي تتحدث عن اعضاء

---

(١) فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة ص ١٣٢ .

(٢) انظر : الاقتصاد في الاعتقاد ص ١٢٩ .

لله كالوجه واليد بأنها الله نفسه أو قدرته، إلخ.. ونفوا الجهة عن الله تعالى، ونادوا بالتنزيه مما كان ينادي به المعتزلة .

ثم كان أن سمحوا للانسان بشيء من القدرة على الفعل بنظريتهم في الكسب فقالوا إن للإنسان الإرادة ، ولله الاتقان وإيجاد القدرة . وقد كان أهل السنة يرفضون أية (مشاركة) للانسان في الافعال ، بل الله عندهم هو الخالق والفاعل في جميع الحالات . الى غير ذلك من القضايا التي يطول الحديث فيها لو استقصيناها جميعاً [١] .

وعلى أيٍّ حال فقد ظهرت (بصمات) تفكير المعتزلة واضحة في تفكير الاشاعرة ، حتى « تكلم الناس فيهم بما هو معروف في كتب أهل العلم ونسبوهم إلى البدعة وبقايا الاعتزال [٢] . »

لقد كان طبيعياً — وقد اعد الاشعري عدته لحرب المعتزلة — ان يتسلح بسلاحهم ، ويتخذ من الادلة العقلية وسيلة لهدم قلاعهم . وقد كان اهل السنة من قبل الاشعري لا يعتمدون إلا على النقل في امور الاعتقاد، على حين أخذت الفلسفة توجه أهل الفرق إلى الاعتماد على العقل . فلما أخذ الاشعري في مناضلة المبتدعة بالعقل حفاظاً على اهل السنة جاء انصار مذهبه من بعده يثبتون عقائدهم بالعقل تدعيماً لها ومنعاً لاثارة الشبه حولها ؟ [٣]

هؤلاء الانصار أنفسهم والتلاميذ ـ كابن مجاهد ـ هم الذين أخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدر للإمامة في طريقتهم وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الادلة والأنظار ، وذلك مثل إثبات الجوهر الفرد، والخلاء ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وانه لا يبقى زمانين ... الخ . [٤]

---

(١) تاريخ الفلسفة في الاسلام لدي بور ص ١١٦ وما بعدها .
(٢) مقدمة ابن تيمية كتاب (مقالات الاسلاميين) لمحي الدين عبد الحميد .ص ٢٥
(٣) الشيخ مصطفى عبد الرازق ٠ تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية . ص ٢٩٣ .
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٤٦٥ .

ومثل الباقلاني فعل ابن فورك والبغـدادي والطبري والبيهقي والقشيري والجويني والغزالي والشهرستاني وغيرهم ، من تلاميذ الاشعري السنيين والذين مكنوا لمذهبه في النفوس والاذهان .

هؤلاء الانصار هم الذين ألفوا الكتب والرسائل في الدعوة للمذهب الجديد وتثبيته ،متخذين من سلاح المعتزلة -الذي عرفوه عن طريق الاشعري- والمتمثل في استعمال العقل والنظر ، وسيلة لبلوغ هدفهم المنشود .

وكما حدث أن أخذ المعتزلة ـ في بدايتهم ـ عن خصومهم من أهل الفلسفة والديانات طريقتهم في الجدل والنقاش ، كذلك جرى بالنسبة لخصوم المعتزلة من الحنابلة والاشاعرة وأهل السنة عموماً . فانبرى الحارث المحاسبي (+ ٢٤٣) ليضع كتاباً في الرد على المعتزلة بطريقتهم ، وكان أبو حنيفة أول من اتخـذ طريق المعتزلة في الدفاع عن الدين وخاض في علم الكلام – الذي كان محرماً الخوض فيه ـ ووضع كتابه (الفقه الاكبر) تمييزاً له عن الفقه العادي .

ويكفي أن المعتزلة أثاروا من المسائل مـا كان « سبباً لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على أهل العقائد، دفعاً في صدور هذه البدع »[1] « وهذا اجتهاد بقي ثمره حتى الآن ، إذ استمد أهل السنة منه في كل باب عند الخوض في مناسبات هذه المسائل .... ولو لم تكن المعتزلة مهدت الطريق لما كان لأهل السنة تقدم في هذا الفن مثل تقدمهم[2] » .

عيسى يوسف الموسى

---

(١) نفس المصدر ص ٤٦٤

(٢) نيبرج : في مقدمته لكتاب (الانتصار) ص ٦

نظرة أخيرة

لقد احتل اهل العدل والتوحيد في تاريخ الفكر الاسلامي مكانة سامقة . تضافرت عوامل الرجعية ، والحكم الجاهل ، والتزمت العاتي ، وغوغائية العامة على انكارها والتقليل من شأنها .

لكن اثر هذه المدرسةالعظيمة كان واضحاً ـ بطريق مباشراو غير مباشر ـ في المدارس التي قامت على أنقاضها كالاشعرية والزيدية الشيعية . وظهر هذا الاثر في نمط الموضوعات التي تبحث ، وفي اسلوب معالجتها ، بل وفي كثير من الحلول التي قدمت لها .

وكان اهل الاعتزال يمثلون ـ بحق ـ التيار التحرري في الفكر الاسلامي وهم رغم أخطائهم القليلة ـ كانوا يهدفون الى خير الاسلام ورفع مكانته والانتصار له .

وكانت شخصيات رجال الاعتزال ـ من امثال واصل والعلاف والنظام والجاحظ ـ علامات بارزة في تاريخ الفكر الاسلامي نعتز بها ونفخر وكانت النزعة العقلية المميزة لتفكيرهم مصدر خير كثير للاسلام والمسلمين . وإنه لحق أن يقال انه لم يكن من مصلحة الاسلام موت المعتزلة ، فقد كانوا نمطاً من أهل الفكر الذين يكدون عقولهم في سبيل الوصول الى الحقيقة ، ولا يسلمون أنفسهم ريشة في مهب ريح القدر يلعب بها كما يشاء بل يثبتون لانفسهم ، ولغيرهم ، ما داموا قد خُلقوا ، وجوداً يطلبونه متكاملاً ومعقولاً .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

١ – « **إبراهيم بن سيّار النظّام ، وآراؤه الكلامية والفلسفية** » : للدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة – لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٦ .

٢ – « **الارشاد** » : لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني – مكتبة الخانجي . القاهرة ١٩٥٠ .

٣ – « **الاقتصاد في الاعتقاد** » : لأبي حامد الغزالي – مطبعة النور ، أنقرة ١٩٦٢ .

٤ – « **الانتصار** » : لأبي الحسين الخيّاط – تحقيق نيبرج . دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٥ .

٥ – « **الإنصاف** » : لأبي بكر الباقلاني – تحقيق زاهد الكوثري . مكتبة الخانجي ، القاهرة ١٩٦٣ .

٦ – « **تاريخ الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام عند المسلمين** » : لعلي مصطفى الغرابي – مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٤٨ .

٧ – « **تاريخ الفلسفة في الإسلام** » : لدى بور ، ترجمة أبو ريدة – طبعة رابعة – القاهرة ١٩٥٧ .

٨ – « **التبصير في الدين** » : لأبي مظفر الاسفرايني – تحقيق زاهد الكوثري . الخانجى ١٩٥٥ .

٩ – « **تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية** » : للشيخ مصطفى عبد الرازق – لجنة التأليف ١٩٥٩ .

١٠ – « **التمهيد** » : للقاضى أبي بكر الباقلاني – تحقيق الأب رتشارد مكارثي اليسوعي . بيروت ١٩٥٧ .

١١ – « **تعليق على شرح الأصول الخمسة** » : لإسماعيل بن علي الفرزاذي – مخطوط / دار الكتب المصرية رقم د/ ٢٧٨٠٠ .

١٢ – « **الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي** » : للدكتور محمد البهي .

١٣ – « **ضحى الإسلام** » : للدكتور أحمد أمين .

١٤ – « **ظهر الإسلام** » : للدكتور أحمد أمين .

١٥ – « **فجر الإسلام** » : للدكتور أحمد أمين .

١٦ – « **الفرق بين الفرق** » : لعبد القاهر البغدادي – تحقيق الشيخ محمد عبد الحميد . مطبعة صبيح – القاهرة .

١٧ – « **المجموع من المحيط بالتكليف** » : للقاضى عبد الجبار بن أحمد – جمع ابن منويه – مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٥٧/عقائد – تيمورية . ومصور مخطوط رقم ب / ٢٩٣١٤ .

١٨ – « **محاضرات في علم الكلام** » : ألقاها الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة على طلبة قسم الفلسفة بكلية الآداب – بنغازى ١٩٥٩ – ١٩٦٠ .

١٩ – « **مقالات الإسلاميين** » : لأبي الحسن الأشعري – تحقيق الشيخ محمد عبد الحميد . مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة .

٢٠ – « **المقدمة** » : لعبد الرحمن بن خلدون – طبعة مصطفى محمد (المطبعة التجارية) بالقاهرة .

٢١ – « **الملل والنحل** » : لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني – تخريج محمد بدران . الطبعة الأولى ، مطبعة الأزهر .

٢٢ – « **المواقف** » : لعبد الرحمن الإيجي – طبعة قديمة بدار الطباعة بالقاهرة ، بدون تاريخ .

٢٣ – « **الموسوعة الفلسفية المختصرة** » : الترجمة العربية لـ Concise Ency. of Western Philosophy and Philosophers – القاهرة ١٩٦٣ .

٢٤ – « **المعتزلة** » : لزهدي حسن جاد الله – مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٧ .

٢٥ – « **نشأة التفكير الفلسفي في الإسلام** » : للدكتور علي سامي النشار – الجزء الأول ، طبعة ١٩٦٢ .

٢٦ – « **نهاية الإقدام في علم الكلام** »: لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني – تحرير وتصحيح ألفريد غيوم .

٢٧ – مقالة « **المعتزلة** » Mu^c tazila في Encyclopoedia of Islam بقلم نيبرج .

٢٨ – A History of English Philosophy تأليف و. ر. سورلى – كمبردج ١٩٥١ .

محتويات الكتاب

للمؤلف

دراسات :

- **الجبّائيان . . أبو علي وأبو هاشم :**

دراسة في فكر أهل الاعتزال وشيخين من كبار رؤسائهم .

- **أحمد زرّوق والزروقية :**

بحث في حياة وفكر علم من أعلام التصوف الإسلامي .

- **قراءات ليبية :**

بحوث مركزة في تاريخ ليبيا القديم منذ فجر التاريخ حتى الفتح الإسلامي .

- **الحركة والسكون :**

مجموعة مقالات ودراسات منوعة .

ترجمات :

- **نصوص ليبية :**

ترجمة لنصوص يونانية ولاتينية عن ليبيا القديمة مع تعليقات وافية .

- **دفاع صبراته :**

دفاع الفيلسوف الأديب (أبو ليوس) في محاكمته الشهيرة مع مقدمة وشروح ضافية .

- **نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى :**

مؤلف و. ر. سذرن / بالاشتراك مع الدكتور صلاح الدين حسن .

- **حسناء قورينا :**

مسرحية « رودنس » للكاتب اللاتيني (بلاوتوس) .

- **حسّان :**

مسرحية الكاتب الإنجليزي (جيمس إلروي فلكّر) .

تحقيق :

- **الحاجيّة :**

مستخلصات من ثلاث رحلات في البلاد الليبية .



* كانت المعتزلة إحدى اشهر الفرق التي لعبت دورا بارزا في توجيه دفّة الفكر الاسلامي ، وقدّمت نموذجا رائعا لما ينبغي أن يكون عليه المفكّر من إقدام على المسائل الخطيرة وجرأة في البحث والرأي والنقد واستخلاص النتائج القائمة على مقدمات عقلية واضحة . هذا إلى جانب تأثيرهم السياسي والاجتماعي والادبي ، سواء عندما كانوا مقربين من أولي الامر أم بعد النكسة التي اصابتهم بعدئذ .

* واذا قلنا : المعتزلة ، فان أول مايتبادر إلى ذهن السامع هم أولئك المفكرون الافذاذ الذين تحرّروا من أسار التقليد وانطلقوا خلف شعلة العقل المتوهجة في بحثهم عن الحق أين كان ، وهم أولئك الرجال العظماء الذين لولا ما حاق بهم من مصير مؤسف دفعت بهم إليه الايدي الرعناء لكان للمسلمين شأن غير هذا الشأن ولكان للفكر الاسلامي واقع غير هذا الذي نراه اليوم .

* لقد اشتهر أهل الاعتزال قبل كل شئ باحتضانهم للعقل واحتفائهم به . فكان لزاما إذن أن يبرز هذا الجانب الرئيسي في تفكيرهم ، وكان ضروريا أن نسلط عليه الأضواء ونجلي للناس بقدر الامكان . ولذا كان هذا البحث محاولة متواضعة لاظهار ما في تفكير المعتزلة من نزعة عقلية وميل واضح إلى استعمال هذا السراج الالهي الذي منحه الله للانسان في موضعه الصحيح ...

من المقدمة

الثمن ٣٥٠ درهماً

المطبعة السريعة